نجیب محفوظ
میرامار

١

عامر وجدي

الإسكندرية أخيرًا .

الإسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .

* * *

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم ، يستقر فى ذكراتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شىء فى لا مبالاة فلا يعرفك . كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة . وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض ، يجلل جنباته النخيل وأشجار البلخ ، ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق

الصيد . والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النحيلة المقوسة ، ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية .

ماريانا ، عزيزتى ماريانا ، أرجو أن تكونى بمعقلك التاريخى ، كالظن وكالمأمول ، وإلا فعلىّ وعلى دنياى السلام . لم يبق إلا القليل ، والدنيا تتكرر فى صورة غريبة للعين الكليلة المظلمة بحاجب أبيض منجرد الشعر .

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية .

* * *

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع . فتحت شراعة الباب . فتحت شراعة الباب من وجه ماريانا . تغيرت كثيرا يا عزيزتى . ولم تعرفنى فى الطرقة المظلمة . أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبى فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل .

ــ بنسيون ميرامار ؟

ــ نعم يا فندم .

ــ أريد حجرة خالية .

الباب فتح . استقبلنى تمثال العذراء البرنزى . ثمة رائحة ما لعلى أفتقدها أحيانا . وقفنا نتبادل النظر . طويلة رشيقة ، الشعر ذهبى ، والصحة لا بأس بها ، ولكن بأعلى الظهر احديداب ، والشعر مصبوغ

حتما ، واليد المعروقة وتجاعيد زاويتى الفم تشى بالعجز والكبر . إنك يا عزيزتى فى الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها . ولكن هل تتذكريننى ؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر ، ودققت النظر ، ثم اختلجت العينان الزرقاوان . ها أنت تتذكرين ، وها أنا أسترد وجودى الضائع .

ــ أوه .. أنت !

ــ مدام !

تصافحنا بحرارة ، غلبها الانفعال فقهقهت ضاحكة . كنساء الأنفوشى قهقهت . وأطاحت بالوقار بضربة واحدة .

ــ يا خبر أبيض ، عامر بك ، أستاذ عامر ، ها .. ها ..

جلسنا على كنبة الأبنوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان فى زجاج صوان المكتب القائم للزينة .

نظرت فيما حولى وقلت :

ــ مدخل البنسيون هو هو لم يتغير .

فقالت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار :

ــ بل تجدد وطلى مرات ، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو ..

ــ إنى سعيد يا ماريانا ، الشكر لله على أنك فى صحة جيدة ..

ـــ وأنت أيضا يا مسيو عامر ، ألمس الخشب ..

ـــ عندى المصران الغليظ والبروستاتا ، نحمده على أى حال ..

ـــ أتجىء بعد زوال الصيف ؟

قلت باهتمام :

ـــ بل جئت للإقامة ، متى تلاقينا آخر مرة ؟.

ـــ منذ .. منذ .. أقلت للإقامة ؟

ـــ نعم يا عزيزتى ، رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما ..

ـــ واختفيت طيلة ذلك العمر !.

ـــ العمل ، والهموم ..

ـــ أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات فى تلك الأعوام ..

ـــ أحيانا ، ولكن وطأة العمل كانت شديدة ، وأنت أدرى بالصحافة ..

ـــ وأعرف أيضا جحود الرجال ..

ـــ ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية ..

ـــ تزوجت طبعا ..

ـــ كلا بعد !

تساءلت مقهقهة :

ـــ ومتى تتم النية وتقدم ؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض :

ـــ لا زواج ، لا أبناء ، اعتزلت العمل ، انتهيت يا ماريانا ..

شجعتنى بحركة من يدها فواصلت قائلا :

ـــ عند ذاك نادتنى الإسكندرية ، مسقط رأسى ، ولما لم يكن لى فيها من قريب حى فقد قصدت الصديق الباقى لى فى دنياى .

ـــ جميل أن يجد الإنسان صديقا يقاسمه وحدته .

ـــ أتذكرين أيام زمان ؟

قالت بصوت مأساوى :

ـــ ذهبت بكل جميل .

ثم فى شبه غمغمة :

ـــ ولكن علينا أن نعيش ..

وجاء وقت الحساب والمساومة . قالت إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون ، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين ، وفى سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدم الفنادق . رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل . واختارت لى الحجرة رقم ٦ فى الجناح البعيد عن البحر . واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف ، على أن يكون لى حق الاستمرار فى الإقامة

صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين . تم الاتفاق على كل شيء بما فيه الفطور الإجبارى ، وأثبتت المدام أنها تستطيع فى الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير . وسألتنى عن حقائبى فأجابت بأنها فى أمانات المحطة . فقالت ضاحكة :

ــ لم تكن متأكدا من وجود ماريانا .

ثم واصلت بحماس :

ــ لتكن إقامة دائمة .

فنظرت إلى يدى التى ذكرتنى بيد مومياء فى المتحف المصرى .

* * *

لا تقل حجرتى فى شيء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . ولتبق الكتب فى صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فيمكن وضعه فوق الترابيزة أو التسريحة . لا يعيبها شيء إلا أن جوها يسبح فى مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون . وزرت الحجرات كلها . الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية . فى كل أقمت صيفا أو أكثر فى زمن مضى . ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفنايير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران

المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة .

قالت وهى تتنهد وقد لمحت لأول مرة طاقم أسنانها :

ــ كان بنسيون الساده !

فقلت مواسيا :

ــ سبحان من له الدوام .

فعادت تقول وهى تلوى بوزها :

ــ أكثر النزلاء شتاء من الطلبة ، وأما فى الصيف فأستقبل كل من هب ودب .

* * *

ــ عامر بك ، كن شفيعى عند دولة الباشا .

وقلت للباشا :

ــ يا دولة الزعيم ، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه فى الجهاد وهو جدير بأن يرشح عن الدائرة .

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان فى جنته . كان يحبنى ويتابع مقالاتى باهتمام صادق . ومرة قال لى :

ــ أنت كلب الأمة الخافك .

كان رحمه الله ينطق القاف كافا . وسمع بها بعض الزملاء القدامى من رجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم : « أهلا

بكلب الأمة ».

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة .

كان عامر وجدى شخصا فريدا ، له فى الرجاء جانب يرده الأصدقاء ، وفى الخوف جانب يتجنبه الأعداء .

* * *

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس . وفى المدخل مجال سمر مع الراديو وماريانا . وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العمارة مقهى الميرامار . من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى ، ولا فى التريانون نفسه . ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم . وإنى لأعرفك يا إسكندرية الشتاء . تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة ، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر .

* * *

ــ ذلك العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح .

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير :

ــ زمن البلاغة ولى ، هل عندك عبارة تصلح لراكب طيارة ؟!

راكب طيارة !. أيها القره جوز المفعم شحما وغباء .. إنما خلق القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين المعربدين من ضحايا

الملاهى والحانات .. ولكن قضى علينا طول العمر بالسير فى ركاب زملاء جدد فى المهنة ، لقنوا علمهم فى السيرك ثم اجتاحوا الصحافة ليلعبوا دور البهلوانات .

* * *

جلست على الفوتيل مرتديا الروب ، استسلمت ماريانا إلى مسند الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء ، وانبعث من المحطة الأفرنجية موسيقى راقصة . وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها . استرخت جفونها كمن تحلم وحركت رأسها فى طرب كأيام زمان.

ــ كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتى .

ــ طول العمر .

ــ لم نتبادل العشق ولا مرة !

ضحكت ضحكة عالية وقالت :

ــ ذوقك بلدى ، لا تنكر ..

ــ عدا مرة عابرة ، هل تذكرين ؟

ضحكت طويلا ثم قالت :

ــ نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب فى السجل « عامر وجدى وحرمه ».

ــ وسبب آخر أبعدنى عنك،كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء..

تهلل وجهها فى سعادة شاملة،ماريانا ، مهم عندى جدا أن يمتد بك العمر بعدى ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد. ماريانا إنك شاهد حى على أن التاريخ ليس وهما،من عهد الإمام إلى اليوم.

* * *

— سيدى الأستاذ ، أستودعك الله .

رمقنى فى ضجر ، وهو يضيق بى كلما رآنى . قلت :

— آن لى أن أعتزل .

قال وهو يدارى ارتياحه :

— خسارة كبيرة ولكننى أرجو لك حياة طيبية .

انتهى كل شىء .

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة . أيها الأنذال ، أيها اللوطيون ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة ؟!

* * *

قلت وأنا أرنو إليها تحت تمثال العذراء :

— ولا هيلانة فى زمانها !

ضحكت وقالت :

— قبل أن تجىء كنت أجلس وحدى ، لا أنتظر أحدًا أعرفه . مهددة دائما بأزمة كلى .

— سلامتك ، ولكن أين أهلك ؟

وهى تتنهد :

— هاجر النساء والرجال .

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت :

— قلت أين أذهب ؟، لقد ولدت هنا ، لم أر أثينا أبدا فى حياتى ، ثم إن البنسيونات الصغيرة لن تؤم على أى حال .

* * *

يعجبنى الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وأن تقوم المحبة بين الناس مكان القانون . لا فض فوك . لقد أكرمك الله بتمثالين والموت .

* * *

— مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شىء .

عزف الهواء فى الخارج.والظلام يهبط خلسة.قامت فأشعلت من النجفة ثلاثة مصابيح فى أسفلها مثل عنقود العنب.عادت إلى مجلسها وهى تقول:

— كنت سيدة ، سيدة بكل معنى الكلمة .

— ما زلت سيدة يا عزيزتى .

— هل تشرب كأيام زمان ؟

— كأس واحدة عند العشاء ، طعامى خفيف جدا ، وذاك سر حيويتى رغم تقدم العمر .

آه يا مسيو عامر ، تقول إن الإسكندرية ليس كمثلها شىء ؟، كلا

خبرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض ، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

لم تعد كما كانت على أيامنا ، الزبالة ترى الآن فى طرقاتها !.

قلت بإشفاق :

ـ عزيزتى ، كان لا بد أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة :

ـ ولكننا نحن الذين خلقناها .

ـ عزيزتى ماريانا ألا تشربين كأيام زمان ؟

ـ كلا ، ولا كأس واحدة ، عندى ضغط من الكلى .

ما أجمل أن نوضع فى متحف جنبا إلى جنب ، ولكن عدينى بألا تموتى قبلى :

ـ مسيو عامر ، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول ، أما الثورة الثانية فجردتنى من مالى وأهلى ، لماذا ؟

ـ إنك مستورة والحمد لله ، ونحن أهلك ، والعالم يشهد أمثال هذه الحوادث كل شروق شمس .

ـ يا له من عالم !

ـ ألا نغير المحطة الإفرنجية ؟

ـ عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها !

ـ أمرك يا عزيزتى .

ـ خبرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض ، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

ضحكت دون أن أنبس .

أجلت البصر فى الجدران المنقوش عليها تاريخها . هناك صورة الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير فى البدلة العسكرية ، زوجها الأول ، ولعله حبيبها الأول والأخير ، الذى قتل فى ثورة ١٩١٩ . فى الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز ، كانت مدرسة . على مرمى البصر فى الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثانى ملك البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية ، أفلس ذات يوم فانتحر .

ـــ متى فتحت البنسيون ؟

ـــ قل متى اضطررت لفتحه من فضلك !

ثم أجابت :

ـــ عام ١٩٢٥ .

عام محنة وكدر ..

* * *

ـــ ها أنا شبه سجين فى بيتى وعرائض التأييد تزف إلى الملك .

ـــ زيف وكذب يا دولة الزعيم .

ـــ حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها .

ـــ الجو سليم والحمد لله .. سأسمع دولتكم مقالة الغد .

* * *

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهى تقول :

ـــ كنت سيدة يا مسيو عامر ، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة

والأبهة والملابس والصالونات ، وكنت أهل على المدعوين كالشمس ..

ـــ رأيت ذلك بعينى ..

ـــ لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون .

ـــ كانت تهل أيضا كالشمس ..

ـــ وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزنى ذلك عن تدهورى ..

ـــ ما زلت سيدة بكل معنى الكلمة .

هزت رأسها ثم سألت :

ـــ والأصدقاء القدامى ماذا حل بهم ؟

ـــ حل بهم المكتوب عليهم .

ـــ لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر ؟

ـــ سوء الحظ ، ليتنا أنجبنا ذرية .

ـــ أوه .. كان كلا الزوجين عاقرا !

يغلب على الظن أنك أنت العاقر ، إنه أمر مؤسف إذ أننا لم نوجد إلا لكى ننجب .

* * *

ذلك البيت الكبير الذى تحول مع الأيام إلى فندق ، يراه السائر فى خان جعفر كقلعة صغيرة ، وحوشه القديم الذى شق فيه طريق إلى خان الخليلى ، قد نقش فى قلبى هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب العتيق ، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل .

العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان « لا » فتقضى فى تعصب أعمى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة .

ــ مولاى ، إنى أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله .

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس ، فقلت :

ــ إنى صحفى ، ذو مال ، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى العباس المرسى .

قال :

ــ رحمه الله كان من التقاة المؤمنين .

وقبض على المسبحة ثم استطرد :

ــ يا بنى ، كنت منا ، جاورت الأزهر زمنا .

ذاك التاريخ متى ينسى !. قال :

ــ ثم طردت من الأزهر ، أنت تذكر ..؟

ــ مولاى،ذلك تاريخ قد انقضى،لأتفه الأسباب كان يحق الطرد، شاب هزه الشباب فاشترك فى تخت مطرب ذات ليلة ، أو طرح بعض أسئلة ببراءة ..

قال بامتعاض :

ــ قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة .

ــ مولاى منذا يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالإلحاد ، ولا مطلع على الفؤاد إلا الله ؟

ــ يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللعنة . منذا يزعم أنه عرف الإيمان . قد تجلى الله للأنبياء ونحن أحوج منهم إلى ذاك التجلى . وعندما نتحسس موضعنا فى البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار .

* * *

لنحذر الكسل . لا بأس من تجربة المشى فى الصباح المشمس . ما أحلى أيام الدفء فى البالما والبجعة . ولو وجدت نفسك وحيدا بين أسر تعمر بالأجيال . الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء يلعبون . لو يخترع المخترعون للمعتزلين جهازا يبادلهم الحديث والسمر ، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد ، أو يركب لهم عينا جديدة تولع مرة أخرى بنبات الأرض وألوان السماء .

وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار ، نوينا أكثر من مرة أن نسجله فى مذكرات ــ كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق باشا ــ ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء . اليوم لم يبق من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة واضمحلت القوة . ففى ذمة الله ذكريات الأزهر ، وصحبة الشيخ على محمود وزكريا أحمد وسيد درويش ، حزب الأمة ما أعجبنى فيه وما نفرنى منه ، الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته ، الوفد بثورته العالمية الخالدة ، الخلافات الحزبية التى قوقعتنى فى حياد بارد لا معنى له ،

الإخوان الذين لم أحبهم ، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة ، غرامياتى وشارع محمد علىّ ، موقفى العنيد من الزواج . لو قيض لذكرياتى أن تكتب لكانت عجبا حقا .

زرت بحنان أثنيوس وباستوريدس وأنطونيادس . جلست وقتا فى بهو وندسور وسيسل ، ملتقى الباشوات والساسة الأجانب فى الزمن القديم ، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث ، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين . رجعت ولى عند الله دعاءان : دعاء بأن يمن على بحل مشكلة الإيمان ، ودعاء بالأ يصيبنى بمرض يقعدنى عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى .

* * *

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب . قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض ، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقية معصميها عليه ، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسما معتزا بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكى الفضفاض عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر .

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهبا لزيارة الطبيب ، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب . سألتها :

— أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك ؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

— ألم تسمع بكارثة الأسهم ؟

لعلها قرأت فى عينى تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدى فقالت :

— ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية ، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى إذ أصررت على البقاء فى الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة والأرياف خوفا من غارات الألمان ، طليت النوافذ باللون الأزرق وأسدلت الستائر ، ودار الرقص على ضوء الشموع ، ولن تجد من يضاهى ضباط الإمبراطورية فى البذل والكرم .

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها أنظر إلى عينى زوجها الأول وينظر إلى . ترى من قتلك وبأى سلاح ؟. وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل ؟. جيلنا العتيد الذى فاق الأجيال جميعا فى غزارة ضحاياه .

* * *

الغناء الأفرنجى لا ينقطع . أقسى ما حكم الزمان به علىّ فى عزلتى . ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب ، ها هى تجلس ملفوفة فى برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه عشرات المشابك المعدنية البيضاء . خفضت صوت الراديو إلى حد الهمس لتبدأ هى إذاعتها وقالت :

— مسيو عامر .. لا شك أن لديك مالا وفيرا ؟

فسألتها بشىء من الحذر :

— هل عندك مشروعات ؟

— كلا ، ولكن فى مثل عمرك — وعمرى أيضا مع الفارق الكبير — لا يتهددنا شىء مثل الفقر والمرض .

قلت والحذر لم يفارقنى بعد :

— لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا .

— لا أذكر أنك كنت مسرفا قط .

ترددت قليلا ثم قلت :

— أرجو أن يكون عمر المدخر من نقودى أطول من عمرى ..

لوحت بيدها باستهانة وقالت :

— الطبيب شجعنى هذه المرة فوعدته بألا أحمل هما .

— جميل ألا نحمل هما .

— يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتى ليلة رأس السنة .

قلت ضاحكا :

— نعم ، على قدر ما تسمح قلوبنا .

راحت تهز رأسها فى تلذذ وتقول فى مناجاة :

— يا ليالى رأس السنة ..

فقلت منفعلا بذكريات بعيدة :

— كم أحبك الكبراء !

— لم أعرف الحب إلا مرة واحدة ..

ثم أشارت إلى صورة الكابتن . وعادت تقول :

— قتله طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم !

ثم قالت بخيلاء :

— كان بنسيون السادة !.. يعمل به طاه ومرمطون وسفرجى وغسالة وخادمان ، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية !

— كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه .

— أهذا عدل يا مسيو عامر ؟

— هو على أى حال طبيعى يا مدام .

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا .

* * *

﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان﴾

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى مذ كنت فى الأزهر . كنت غائصا فى مقعد كبير طارحا قدمى على وسادة . هطل المطر بغزارة فارتفع رنينه فوق درجات السلم المعدنى فى المنور .

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة فى البنسيون . رفعت رأسى عن الكتاب وأنصت . ضيف أم نزيل جديد ؟. صوت ماريانا يرحب بحرارة لا تليق إلا بصديق حميم . وثمة ضحك أيضا . ثم وضحت

نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى من القادم. الوقت بعد العصر بقليل. والمطر ينهل بشدة، والغيوم تريق فى الحجرة ظلمة كالليـل. ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾.

* * *

يميل إلى القصر والبدانة ، منتفخ الشدقين واللغد ، وله عينـان زرقاوان رغم سمرة بشرته ، ذو طابع أرستقراطى لا تخطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم . قدمته المدام باسم « طلبة بك مرزوق » فى مجلس المساء ، ثم قالت تزيدنى معرفة به :

ــ كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار .

لم يكن عندى فى حاجة إلى تعريف. عرفته من بعيد بحكم مهنتى على عهد النضال السياسى والحزبى. كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم. أما المدام فقد تبدت فى أحسن أحوالها مرحا وعاطفية، نوهت مرارا بصداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفق عندما دعته بمحبها القديم.

وقال لى الرجل ونحن نتبادل الحديث :

ــ قرأت لك كثيرا فيما مضى ..

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا :

ــ كنت تعطينى مثلا حيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل!

وضحك طويلا ولكننى لم أجادله.وقالت المدام تخاطبنى بشماتة:

ــ طلبـة بـك تلميذ قديم للجزويت ، سنسمع الأغانى الأفرنجية معا ونتركك لتتعذب وحدك ..

ثم بسطت راحتيها فى ترحيب وقالت :

ــ جاء ليقيم معنا ..

فرحبت به فعادت تقول فى رثاء :

ــ كان يملك ألف فدان ، كان يلعب بالمال لعبا ..

هنا قال الرجل بامتعاض :

ــ انقضى عهد اللعب ..

ــ وأين كريمتك يا طلبة بك ؟

ــ فى الكويت مع زوجها المقاول .

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر مأساته قائلا :

ــ خسرت أموالى جميعا ثمنا لنكتة عابرة !

فسألته :

ــ هل دعيت إلى تحقيق ؟

فقال بازدراء :

ــ المسألة بكل بساطة أنهم كانوا فى حاجة إلى مالى ..

وكانت المرأة تنظر إليه بإمعان فقالت :

ــ تغيرت كثيرا يا طلبة بك .

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال :

ــ أصابتنى جلطة كادت تقضى على ..

ثم بشىء من العزاء :

ــ ولكننى أستطيع أن أشرب الويسكى فى حدود الاعتدال .

* * *

غمس الكرواسان فى الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد . لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأنس بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية ، وإن انطوى كل منا فى أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه : ولكن تجىء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى فى الأعماق ليثير الغبار والتحديات . أجل قد سألنى بلا مناسبة :

ــ أتدرى ما السبب وراء المصائب التى حلت بنا ؟

فتساءلت بدهشة :

ــ أى مصائب تعنى ؟

ــ أيها الثعلب ، إنك تعرف تماما ما أعنى .

ــ ولكن لم تحل بى المصائب من أى نوع كان ..

رفع حاجبيه الأشيبين وقال :

ــ لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتليت أموالنا ..

ــ لعلك تذكر أننى خرجت من الوفد ، بل من الأحزاب جميعا ، منذ حادث ٤ فبراير ..

ــ ولو .. ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله ..

فقلت زاهدا فى الجدل :

ــ بصرف النظر عن موقفى فإنى مشوق إلى معرفة رأيك ..

قال بهدوء وازدراء :

ــ يوجد سبب بعيد فى طرف الحبل المشدود حول أعناقنا ، شخص لا يكاد يذكره أحد ..

ــ من هو ؟

ــ سعد زغلول !

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة :

ــ أجل ، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس ، والتطاول على الملك ، وتملق الجماهير ، رمى فى الأرض ببذرة خبيثة ، ما زلت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا ..

* * *

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه الساكن فى ترعة المحمودية على حين مددت ساق واستلقيت على مسند

الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ . هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار ، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام ، فآوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات ..

مهما يكن من غلو صاحبى وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء . عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين . إنه يغبط كريمته فى مهجرها ويرى أحلاما غريبة ، لا يطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية . ويؤمن بأن الاعتداء على ماله إنما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته .

ـــ كدت أعدل عن الإقامة فى البنسيون عندما علمت بوجودك ..

لم أصدق وسألته عن السبب :

ـــ وقع اختيارى على بنسيون ميرامار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبته الخواجاية .

فسألته عما بدد سوء ظنه بى :

ـــ فكرت ، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين !

ضحكت طويلا ثم سألته :

ـــ ولم تخاف العملاء ؟

ـــ لا شىء فى الحقيقة غير أنى أروح عن نفسى أحيانا بالكلام .

ثم واصل حديثه بعصبية :

ـــ لم يعد لى مقام فى الريف ، وجو القاهرة يصر على إشعارى

بهوانى . عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة ، وقلت لقد فقدت زوجها فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى ، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا .

وأثنى على صحتى رغم طعونى فى السن وجعل يغرينى على مصاحبته فى دور السينما والمقاهى الشتوية . ثم تساءل :

ـــ لماذا عدل الله عن سياسة القوة ؟

لم أدرك مرماه فقال متبسطا فى الشرح :

ـــ أعنى الطوفان والرياح وغيرها .

فسألته بدورى :

ـــ أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما ؟

فلوح بيده ساخطا وقال :

ـــ ردد دعايات الشيوعيين أيها الثعلب !، إن أكبر خطأ فى حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية !

ـــ خبرنى هل تجدد غرامياتك مع ماريانا ؟

ضحك عاليا وقال :

ـــ يا لها من فكرة جنونية،إنى شيخ هدمه العمر والسياسة وهيهات أن تحركنى إلا المعجزات،وأما هى فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة..

وضحك مرة أخرى ثم قال :

ــ وأنت هل نسيت تاريخك ؟، لقد قرأت عن فضائحك فى مجلة الكشكول ، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد على ..

ضحكت بلا تعليق فتساءل :

ــ هل رجعت أخيرا إلى الدين ؟

ــ وأنت ؟.. يخيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشىء ؟..

فقال بحنق :

ــ كيف لا أومن بالله وأنا أحترق فى جحيمه ؟!

* * *

ــ لقد خلق أمثالك للجحيم ، لن يبارك الله لك فى شىء ، اخرج مطرودا من هذا المكان الطاهر ، كما طرد إبليس من رحمة الله .

* * *

دقت الساعة الكبيرة فى الصالة معلنة انتصاف الليل . تجاوبت أركان المنور بصفير هواء قوى . أقعدنى الكسل والدفء وأنا غائص فى المقعد الكبير عن القيام إلى الفراش . وثقلت على وحدتى بعد أن انفردت بى الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثمانين .

وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبته قائلا :

ــ معذرة ، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم .

نظرت نحوه باستغراب ، لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة .

ــ أتعلم كم كان يكلفنى فى الشهر الواحد الدواء والفيتامينات والهرمونات والروائح والدهون وخلافه ؟!

انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه ، ثم تراجع فأغلق الباب ومضى .

* * *

السرادق مكتظ بالخلق ، ساحة المولد كيوم الحشر ، والصواريخ تنطلق فى الفضاء . انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد . وتهادت الرولزرويس حتى وقفت أمام السرادق . هبط منها طلبة مرزوق فخف لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية . طريقة الرجل الذى جمع فى قلبه بين الرسول والمندوب السامى . ولمحنى صاحب الرولزرويس فأعرض عنى فى كبرياء . وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتنى الليلة . ودعى سيد المطربين إلى وسط السرادق فأنشد « يا سماء ما عليك سماء ». وفى الهزيع الأخير من الليل غنى « أحب اشوفك » فأطاح بعقول المريدين . متى كانت تلك الليلة العجيبة ؟. على التحديد لا أذكر ولكنها حتما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفا لى الطرب .

* * *

كنت أجلس فى المدخل ولا أحد معى فى البنسيون عندما دق الجرس . فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامى وجها انشرح

والديوارس ، مائلا عن قطاعة البسطرمة ، حتى استقر على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقال ذى الشارب البلقانى . وقد تأبطت حقيبة من القش المجدول ملئت بالمشتريات ، وقد برزت من جانب غطائها رأس زجاجة الجونى ووكر .

تصديت لها وهى تغادر المحل فتلاقت عينانا ، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرتى الضاحكة المعجبة . سارت فى طريقها فسرت وراءها ولا غاية لى إلا تحية الجمال ذى العبير الريفى الذى أحبه . تعرضنا فى طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الوانى الغارب ، وهى تتقدمنى فى مشية عسكرية سريعة حتى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار . التفتت ناحيتى وهى تمرق إلى مدخل العمارة فتلقيت نظرة عسلية محايدة !

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا ..

* * *

كان عبيرها قد تبخر من نفسى أو كاد عندما رأيتها للمرة الثانية فى نهاية الأسبوع . لمحتها أمام معرض محمود أبو العباس وهى تبتاع الجرائد . أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول :

ـــ صباح الفل ..

رد محمود أبو العباس التحية دونها ولكنها نظرت نحوى فتلقيت نظرتها بعين صقر تود أن تشدها إليها إلى الأبد . سرعان ما ذهبت وقد هيجت عبيرها من جديد فملأ حواسى جميعا ، وقلت لمحمود :

٤

سرحان البحيرى

هاى لايف .

معرض أشكال وألوان مثير للشغب ، شغب البطون والقلوب .

موجة هائلة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية ، العلب الحريفة والمسكرة ، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة ، الألبـان ومستخرجاتها ، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات .

لذلك تتوقف قدماى بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية .

ـــ وهواء الخريف يلفحنى بدسامته الجنسية . وعيناى ترنوان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة . طوبى للأرض التى غذت وجنتيك ونهديك . وأنا أراجع أسعار القوارير لمحتها . امتد إليها بصرى من موقفى فوق الطوار ، مارا فوق برميل الزيتون ، نافذا من فرجة بين الهيج

— هنيئا لك !

فضحك فى براءة فسألته :

— من أين ؟

فأجاب دون مبالاة :

— تعمل فى بنسيون ميرامار !

رددت إليه مبلغا كنت اقترضته فى زنقة من مطالب الأسرة ثم مضيت أتمشى حول الفسقية فى انتظار المهندس على بكير . فلاحة حلوة ، حلوة بكل معنى الكلمة ، وها هى تسلب لبى . انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة فى حبائل الانتظار حولى .

وتذكرت موسم جنى القطن فى قريتنا .

* * *

جاء على بكير حوالى العاشرة صباحا فذهبنا إلى مسكنى بشارع الليدو بالأزاريطة . كانت صفية قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو . غادرنا السينما فى الواحدة بعد الظهر فسبقانى إلى الشقة وذهبت إلى هاى لايف لابتياع زجاجة نبيذ قبرصى .

رأيت الفلاحة واقفة تستبضع . كملاطفة الأحلام وابتسام الحظ . شىء نبهها إلى وقفتى فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهى المبتهج . أرجعت رأسها ولكننى لمحت فى مرآة تتوسط أسرابا من قوارير الخمر ابتسامة انفرجت عنها شفتاها الورديتان . رأيت — فيما يرى الحالم اليقظان — نفسى مقيما فى البنسيون ، أستمتع فيه بالدفء

والحب . لقد تسللت إلى نفسى أنعشت قلبى كما حدث له مرة فى كلية التجارة . وهذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق . فلاحة .. بعيدة عن منبتها .. غريبة فى بنسيون .. غريبة كالكلب الضال الأمين فى سعيه وراء صاحب .

وقلت لها ونحن نغادر المحل :

— لولا ضوء النهار لأوصلتك ..

فقطبت ساخرة وهى تقول دون غضب حقيقى :

— دمك خفيف !

فحلمت أحلاما سعيدة بعبير الريف والحب البكر ..

* * *

وجدت على بكير متربعا فوق شلته بحجرة الشلت ، وصفية تعد الطعام فى المطبخ . ارتميت إلى جانبه ثم وضعت الزجاجة أمامى وأنا أقول :

— نار .. هذا هو آخر تعريف علمى للأسعار ..

شد على ذارعى ثم سألنى :

— مرت أزمة العام الدراسى الجديد ؟

— مرت ولكن بغير سلام ..

أخبرته ذات يوم بتنازلى لأمى وإخوتى عن إيراد ميراثى من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولكن ما الفائدة ؟!.

وقال مشجعا :

ـــ ما زلت فى مقتبل العمر والحياة ، وأمامك مستقبل باهر ..

فقلت فى ضجر :

ـــ حدثنى عن الحاضر من فضلك ، وخبرنى بالله عن معنى الحياة بلا فيللا وسيارة وامرأة ؟

ضحك على بكير موافقا ، وسمعت صفية حديثى وهى قادمة بالصينية فرمقتنى بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة :

ـــ لا ينقصه شيء ولكنه جاحد ابن جاحدة !

فتراجعت قائلا :

ـــ لا أملك فى الواقع إلا المرأة !

قالت صفية متشكية :

ـــ نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام ، عزمت على تعليمه الاقتصاد فجرفنى معه إلى التبذير !

شربنا وأكلنا ونمنا .

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفية إلى الجنفواز ، وذهبت وعلى بكير إلى الكافيه دى لابيه . سألنى ونحن نحتسى القهوة :

ـــ أما زالت تطمح إلى الزواج منك ؟

ـــ مجنونة .. ماذا تتوقع من مجنونة ؟

ـــ أخاف أن ..

ـــ نجوم السما أقرب إليها منى ، ثم إننى مللتها جدا ..

نظرنا من الزجاج إلى جو رائق . شعرت بعينى على بكير وهما

تتحولان إلىّ فتجاهلتهما وأنا أستشعر نذير الخطر . ومالبث أن قال :

ـــ لندخل فى الجد ..

حولت نظرى إليه. صرنا وجها لوجه. لا مفر الآن ولا مهرب. قلت:

ـــ لندخل فى الجد ..

فقال فى هدوء غريب :

ـــ حسن ، تمت دراسة الموضوع بدقائقه !

انقبض قلبى .

انقبض قلبى . نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق . قال :

ـــ أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم، سواق اللورى مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن..

ضحكت رغما عنى . نظر إلىّ متسائلا ، ثم أدركت النكتة التى أفلتت منه بلا قصد . ضحك أيضا ، ثم قطب قائلا :

ـــ ليكن، إنه مال بلا صاحب، تصور ما يعنيه لورى من الغزل فى السوق السوداء، عملية مأمونة ويمكن أن تتكرر أربع مرات فى الشهر ..

رحت أفكر وأحلم . وواصل على حديثه قائلا :

ـــ الخطوات المشروعة سراب ، صدقنى . ترقيات وعلاوات ثم ماذا ؟، بكم البيضة ؟.. بكم البدلة ؟ وها أنت تتحدث عن فيللا وسيارة وامرأة ، حسن ، أفتنى إذن ؟، وقد انتخبت عضوا فى الوحدة فماذا أفدت ؟، وانتخبت عضوا فى مجلس الإدارة فماذا جد ؟، وتطوعت لحل مشكلات العمال فهل فتحوا لك أبواب السماء ؟،

والأسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجرى، حسن ، ما الخطأ؟، كيف وقع؟، أنحن أرانب معمل؟! عزيزى.. اعدلنى على القبلة..

سألته وصوتى يقع من سمعى موقع الصوت الغريب :

ـــ متى نشرع فى العمل ؟

ـــ لن نبدأ قبل شهرين وربما ثلاثة ، يجب أن يكون التخطيط أساس عملنا ، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد !

رغم أن مقاومتى الحقيقية كانت قد انهارت من زمن بعيد إلا أن قلبى ناء بهم ثقيل . وجعل ينظر فى عينى ببصر حاد . ثم سألنى :

ـــ هه ؟.

فانفجرت ضاحكا . ضحكت حتى دمعت عيناى ،وطالعنى وجهه طيلة الوقت صلبا باردا متسائلا . ملت نحوه فوق المائدة ثم همست :

ـــ أوكى أيها الزميل العزيز ..

شد على يدى ثم ذهب . لبثت وحدى موزعا بين أفكارى .

ـــ أستاذ .. سأحتاج قريبا إلى خبرتك ..

سألته عما يريد فقال :

ـــ سأشترى ـــ إن شاء الكريم ـــ مطعم بنيوتى عندما يقرر السفر إلى الخارج ..

ذهلت حقا. نظرت إلى معرضه المكتظ بالكتب والجرائد والمجلات، هل مكنه حقا من ادخار ما يبتاع به مطعم بنيوتى؟. وسألته:

ـــ ماذا تريد منى وأنا لا أعرف عن الطعام إلا أنه يؤكل ؟

ـــ أن تساعدنى فى الحسابات ..

وعدته خيرا ، ثم خطر لى أن أبيع الأفدنة وأشاركه ، فسألته :

ـــ لعلك تحتاج إلى شريك ؟

فأجاب بنفور واضح :

ـــ كلا ، لا أحب الشركة ، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر الحكومة !

* * *

ذهبت إلى المقر العام للاتحاد الاشتراكى فاستمعت إلى محاضرة عن السوق السوداء ، أعقبتها مناقشة عامة . ولما انفض الاجتماع سمعت صوتا ينادينى وأنا ماض نحو الباب الخارجى . توقفت فى تيار الزحام وأنا أتلفت فرأيت رأفت أمين مقبلا نحوى . لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة بالجامعة فتصافحنا بحرارة ، وسرنا فى الزحام حتى خرجنا إلى الطريق . أخبرنى بأنه حضر الاجتماع باعتباره ـــ مثلى ـــ عضوا فى الوحدة الأساسية لشركة المعادن المتحدة . واتجهنا نحو الكورنيش بإغراء من لطافة الجو ، ولما خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا فى الضحك معا . ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن فى الإمكان نسيانها أو تجاهلها . ذكريات اجتماعية مماثلة ، شهدناها جنبا لجنب ، فصفقنا معا وهتفنا معا . حدث ذلك عندما كنا عضوين فى لجنة الطلبة الوفديين بالكلية . أتذكر ؟. طبعا منذا ينسى ؟ كنا وقتذاك أعداء الدولة . أجل .. أما اليوم فنحن الدولة . وجرى الحديث هكذا

بين الماضى والحاضر حتى قلت له :

ــ لا أصدق أنك ــ أنت بالذات ــ تبرأت من وفديتك ؟

فعاوده الضحك وهو يقول :

ــ وأنت لم تكن وفديا مخلصا ، واحدة بواحدة والبادى أظلم ..

ثم لكزنى بكوعه متسائلا :

ــ ولكن أأنت اشتراكى مخلص ؟

ــ طبعا ..

ــ لم من فضلك ؟

ــ للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها .

ــ والبصير ؟

فقلت بجدية :

ــ إنى أعنى ما أقول .

ــ إذن فأنت ثورى اشتراكى ؟

ــ بلا أدنى شك .

ــ مبارك ، خبرنى الآن أين نقضى ليلتنا ؟

فدعوته إلى الجنفواز . سهرنا حتى منتصف الليل . أردت أن أنتظر صفية ولكنها أخبرتنى بأنها مدعوة للذهاب مع زبون ليبى ..

* * *

كنت خارجا من سينما ستراند عندما رأيت الفلاحة الحلوة . كانت قادمة من شارع صفية زغلول بصحبة عجوز يونانية . رائقة السمرة

ساحرة النظرة ريانة الشباب . كان الطوار مكتظا بالخلق ، والهواء يهب منعشا حاملا رائحة البحر ، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبة فتضفى على الجو لونا أبيض ناعسا ناعما كبهجة الرضى . مضتا تشقان طريقهما وسط الزحام فتراجعت خطوة موسعا وأنا أحيى بإغماضة من عينى . ابتسمت بحذر ، أجل .. استجابت باسمة فى حذر . وقلت لنفسى إن الصنارة قد نشبت . وشاع فى نفسى سرور كالسائل العذب الذى يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء .

* * *

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسى قهوة الأصيل . كانت عيناها منتفختين محمرتين من أثر النوم العميق ، وشفتاها الغليظتان منفرجتين ، فى أقبح أحوالها كالعادة ، وغافلة تماما عما دبرت لها . فقلت بلهجة أسيفة مصطنعة :

ــ صفية ..

رمقتنى مستطلعة فقلت :

ــ جدت ظروف سخيفة ولكن علينا أن نتوافق معها ؟

فاستقرت فى عينيها نظرة حذرة ، وهزت رأسها داعية إياى إلى الإفصاح فقلت :

ــ سنضطر إلى تغيير نظام حياتنا ، أعنى الإقامة فى شقة واحدة !

قطبت فتجمع الغضب بين حاجبيها كما يتجمع ماء المطر فى نقرة

مطينة وتحفزت للنضال ، فقلت :

ـــ إنها كارثة ، كارثة تماما بالنظر إلى أزمة المساكن ، ولكن زميلا فى الشركة لمح لى ، أجل ، حدثتك مرة عن الرقابة الإدارية ، ولا شك أن مستقبلك يهمك كما يهمنى .

قالت بضيق محتجة :

ـــ ولكن مضى على حياتنا المشتركة حوالى عام ونصف .

ـــ كانت أهنأ أيام حياتى ، وكان يمكن أن تمتد إلى الأبد دون أن يدرى بها أحد ..

ونظرت فى قعر الفنجال كأنما أقرأ البخت ثم واصلت قائلا :

ـــ ولكن سوء الحظ أدركنى ، سأرجع إلى شقة العازب المبعثرة ، وربما اضطررت إلى الاقامة فى فندق حقير أو بنسيون مزعج ..

نفخت بوحشية وقالت :

ـــ يوجد حل ، يوجد حل ، ولكنك خسيس ابن حرام !

ـــ أنا رجل صريح ، أحبك حقا ، وسأحبك حتى آخر يوم فى حياتى ، ولكنى قلت لك من أول يوم إن الله لم يخلقنى للزواج ..

ـــ لأنه خلقك ناقص المروءة ..

ـــ وإذن فلا داعى للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها ..

تفرست فى عينى كأنما لتنفذ إلى أغوارهما ، ثم قالت :

ـــ تريد أن تهجرنى ..

فبادرتها :

ـــ صفية ، أنا رجل صريح ، لو فى نيتى أن أهجرك لقلتها بصريح العبارة وذهبت ..

ران الكدر على روحها ووجهها ، وضاعف العبوس من دمامتها العابرة ، فتمنيت أن تعافنى وتكرهنى ليذهب كل منا إلى حال سبيله .

وقلت لنفسى إنه عند الحساب ستتعادل كفتانا . كانت حياتنا مشتركة بكل معنى الكلمة عدا المجاملات التى كانت تنفحنى بها فى المناسبات والتى عجزت ـــ لظروفى الخاصة ـــ عن ردها . غيرى آخرون يستغلون عشيقاتهم استغلالا فاحشا . الحق أنى لم أعتد بذل النقود للنساء . وعلى أى حال فإنى أتوقع معركة ختامية ، وقد جربت ذلك أكثر من مرة . وقد عرفت الحب فى الكلية ولكنى جئت متأخرا فضاعت الفرصة . فرصة سعيدة كانت . جميلة وذات مستقبل وكريمة لطبيب تتدفق عليه أموال المرضى ، ولكن ما فائدة « لو » ؟.

ها هو قلبى يخفق مرة أخرى . أجل .. إنى أحب الفلاحة . مجرد شهوة كالتى ساقتنى إلى صفية فى الجنفواز .

* * *

ـــ أريد حجرة لإقامة طويلة .

تجلت نظرة ارتياح فى العينين الزرقاوين المستطلعتين، ثم تراخت مستندة إلى ظهر الكنبة تحت تمثال العذراء. فى لفتاتها رشاقة متخلفة عن ماض سعيد، وشعرها الذهبى المصبوغ يشى برغبة مزمنة فى التشبث بذلك الماضى. ساومتنى بصراحة تجارية مؤكدة الأسعار الخاصة بالصيف.

— ولكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندرية ؟

لم يكن سؤالا عارضا ولكنه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم . جاريتها لأوثق علاقتى بها فقدمت لها اعترافا بعملى وسنى وبلدتى وحالتى الاجتماعية . فى أثناء ذلك رجعت الفلاحة من مشوار خارجى ، رأتنى فخفضت عينيها ، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة ، ومضت متعثرة فى ارتباكها ، ولكن المدام لم تفطن بطبيعة الحال إلى ارتباكها ، ولا رأت تورد خديها . وعندما تقدمتنى إلى الحجرة الخالية — آخر حجرة خالية مطلة على الشارع — كنا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر فى الزمان .

* * *

تفقدت الحجرة بارتياح ثم جلست على المقعد الكبير مستبشرا . عرفت من مجلسى — ودون سؤال — اسم الفلاحة وهى تنادى . وما لبثت أن دخلت حجرتى حاملة الملاءات والأغطية لتعد السرير . مضيت أراقبها بسعادة متفحصا أجزاءها بعناية وشغف ، الشعر والقسمات والقامة . يا سيدى أبو العباس البنت جميلة ، جميلة لدرجة السحر ، وتملك شخصية أيضا . أرادت أن تختلس منى نظرة ولكن عينى كانتا لها بالمرصاد . وابتسمت قائلا :

— أنا سعيد يا زهرة ..

استمرت فى عملها كأنها لم تسمعنى فقلت :

— ربنا يطول عمرك فقد أرجعت إلى الريف الذى جئت منه ..

ابتسمت فقلت :

— محسوبك سرحان البحيرى يا زهرة ..

فلم تملك أن سألت :

— بحيرى ؟

— من فرقاصة بالبحيرة ..

كتمت ضحكتها وهى تقول :

— أنا من الزيادية ..

فهتفت بنشوة كأنما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان سعادتى وحبى :

— يا ربنا ..

وكانت انتهت من عملها فهمت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلا :

— ابقى قليلا فلدى الكثير مما أود قوله .

ولكنها حركت رأسها بدلال برىء ثم ذهبت . سعدت بتنكرها لرجائى واعتدته معاملة « خاصة » لا يمكن أن تعامل بها « زبونا » مجردا . نعم إنها ثمرة ناضجة وما على إلا أن أقطفها ولكن جسمها برىء فيما يبدو ولا علم لى باستعداداتها . إنى أحبها ، ولا غنى لى عنها . وددت أن يضمنا مسكن واحد بعيدا عن هذا البنسيون الذى لا يخلو عادة من متطفلين ثقلاء .

* * *

على مائدة الإفطار تعرفت بعجوزين غريبين . أكبرهما حى ميت ،

مومياء ، ولكنه لا يخلو من مرح ، وهو — كما قيل — صحفى قديم . والآخر طلبة مرزوق ، ليس اسمه بالغريب على أذنى وإن كاد يمحى ، وهو ممن وضعوا تحت الحراسة ، ولا علم لى بما جاء به إلى هـذا البنسيون . وقد أثار تطلعى من أول الأمر ، فكل شاذ مثير سواء كان مجرما أو مجنونا أو محكوما عليه أو موضوعا تحت الحراسة . إلى ذلك كله فقد كان من الطبقة التى علينا أن نرثها بطريقة ما . ها هو يخفى عينيه فى قدح الشاى ، متجنبا النظر نحوى ، عن حذر أو كبرياء . وتلاطمت فى نفسى — حياله — أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية والرثاء من ناحية أخرى ، غير أن إحساسا منها استقر فى وضوح وهو ذعرى الغريب من فكرة مصادرة الثروات ، كأنما أومن بأن من يقتل مرة يعتاد القتل !.

وأراد عامر وجدى أن يجاملنى فقال :

— يسرنى أنك من رجال الاقتصاد ، إن الدولة اليوم تعتمد أول ما تعتمد على الاقتصاديين والمهندسين ..

تذكرت على بكير فلم أهنأ بالثناء . وعاد العجوز يقول :

— على أيامنا كان جل اعتمادها على بلاغة البلغاء !

ضحكت هازئا متوهما أنى بذلك أجارى رأيه غير أنه استاء فيما بدا فأدركت أنه لم يكن ينتقد، ولكنه كان يؤرخ. وراح يقول مدافعا عن جيله:

— يا بنى . كان هدفنا إيقاظ الشعب ، والشعوب تستيقظ بالكلمات ، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين !

وسرعان ما تراجعت قائلا فى اعتذار :

— لو لم يقم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود !

وظل طلبة مرزوق ملازما الصمت .

* * *

قلبى يستبعد براءته وفتوته . مثل هذا الصباح المشرق . مثل زرقة البحر الصافية . مثل هذا الدفء المبارك . وحب الحياة يتردد مع أنفاسى ، يجرى مع ريقى ، ينعش روحى بفرح ونهم . عملت نهارا طيبا بالشركة ثم تناولت الغداء مع صفية فى مسكنى القديم . نظرت إلى ببصر فأسدلت على وجهى قناع الكآبة . شكوت إليها وحشة البنسيون وبرودته . حياة لا تحتمل يا عزيزتى ولذلك وصيت سمسارا بالبحث لى عن شقة .

وترددت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام ، ولما آن لنا أن نستريح بعد الغداء ساءلت نفسى متى أتحرر من السخرة ؟.

ولمحت زهرة وهى تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدى . دقت الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحا من الشاى . جاءتنى منورة كالنرجسة . أو أغنية تتغنى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين . لمست يدها وأنا أتناول القدح وهمست :

— من أجلك سجنت نفسى فى هذه الحجرة ..

قطبت لتدارى عواطفها ثم استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفى عن ناظرى :

— أحبك .. لا تنسى ذلك أبدا ..

ولكنها استجابت لمحادثتي عصر اليوم التالى . رغبت أن أعرف عنها أقصى ما يسعنى معرفته فسألتها :

ــ ماذا جاء بك من الزيادية إلى هنا ؟

أجابت باللهجة الريفية الأليفة .

ــ الرزق ..

وحدثتنى عن أهلها ، وظروف هربها ، والتجائها أخيرا إلى المدام بوصفها عميلة أبيها . قلت بإشفاق :

ــ ولكنها خواجاية .. والبنسيون كما تعلمين سوق !

قالت بثقة واعتزاز :

ــ عرفت الحقل والسوق !

ليست بالغرة ولا بالهشة . ولكن هل آخذ القصة بحرفيتها . إن اللاتى يهربن من القرية إنما يهربن .. هه ؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونا بها :

ــ حدث ذلك كله لكي نلتقى هنا !

رمتنى بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياب ولكنها ندية بالميل ، فقلت :

ــ أحبك . هذا ما أود قوله ولا أمله يا زهرة...

تمتمت :

ــ كفاية !

لن أكف حتى أسمع مثلها من شفتيك ، حتى تطمئنى إلى حضنى ..

ــ أهذا ما تفكر فيه ؟

ــ لن يكون لشىء طعم حتى أناله ..

ذهبت بوجه صاف لا أثر فيه للكدر أو الغضب . هنأت نفسى على بلوغ المراد . ووجدتنى أجتر حنينى القديم إلى الزواج ، إنه لحنين قديم ، وقد فاض من جديد كنبع يتفجر . أود من أعماق يا زهرة لولا .. أجل لولا ، سحقا للبديهيات السخيفة القاتلة !

* * *

انضم إلينا شابان جديدان . حسنى علام ومنصور باهى . تطلعت إلى التعرف بهما بغريزة لا تنى عن الإكثار من المعارف والصحاب ، ودائما تنظر إلى الوجه الجديد بعين صياد . وحسنى علام من أسرة قديمة بطنطا ، وجيه من الوجهاء ، ومالك لمائة فدان ، جميل الوجه قوى البنيان ، كما يتمنى أى واحد منا أن يكون . وأنا قد أكره فكرة طبقته ولكنى أفتن بأى شخص منها إذا ساقتنى الظروف الممتازة إلى صحبته . ومن السهل تخيل الحياة التى يمارسها شاب مثله رغم تغير الأحوال ، فإن يكن بعد ذلك كريما كما ينبغى له فحدث عن الليالى الملاح بغير حساب .

أما منصور باهى فنوع آخر من الشبان . إذاعى بمحطة الإسكندرية وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن . ذاك جميل ومفيد أيضا ولكنه يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل.إنه تمثال دقيق جيد الصنع ذو ملامح بريئة لا يحظى بها عادة إلا طفل . أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتداء إلى الدرب الضيق الوعر الموصل إلى قلبه . ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيا وراء عمل ، وما أكثر المشكلات التى يتطلب حلها

فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها

الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن !

* * *

جذبتها من ساعدها بغتة . انتظرت حتى وضعت قدح الشاى على الترابيزة ثم جذبتها من ساعدها بغتة . اختل توازنها فتهاوت على بمجلسى على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها ــ المتاح لى من وجهها ــ قبلة خاطفة متوترة نهمة متعجلة . اعترضت ساعدى بيدين قويتين ثم تملصت منى . انتصبت متراجعة مقطبة . نظرت نحوها فى حذر وتوقع ثم ابتسمت مستعطفا . تجملت بالصبر فيما بدا . ثم راق وجهها وصفا كالبحر فى صباح خريف دميث . توسلت إليها بإشارة أن تقترب فلم تلب و لم تذهب . وثبت إليها محموما برغبة مجنونة فضممتها إلى صدرى بلا مقاومة تذكر ، لم التقت شفتانا فى قبلة طويلة نهمة . وهمست فى أذنها ورائحة شعرها الآدمية تملأ أنفى :

ــ تعالى إلىّ ليلا ..

تفرست فى وجهى قليلا ثم سألتنى :

ــ ماذا تريد ؟

ــ أريدك أنت يا زهرة ..

لاحظت نظرة جادة فى عينيها وهى تفكر ، فسألتها :

ــ ستأتين ؟

سألتنى بمرارة :

ــ ماذا تريد منى ؟

أفقت قليلا من سكرتى وقلت بحذر :

ــ نتحادث ونتبادل الحب !

ــ لكننا نفعل ذلك الآن ..

ــ فى عجلة وخوف يفسدان السرور !

ــ لا أرتاح لأفكارك !

ــ إنك تسيئين فهمى !

هزت رأسها كأنما تؤكد فهمها . وذهبت وهى تبتسم رغم ذلك .

داخلنى حزن وتعاسة . جعلت أقول متحسرا : لو كانت من أسرة .. لو كانت على علم أو مال !. وانهمر من لسانى سيل من اللعنات ..

* * *

وكانت ليلة أم كلثوم .

نازعنى المزاج إلى قضائها فى بيت على بكير لنتلقى السماع فى جو هادىء جدير به ، كما دعانى رأفت أمين إلى السماع فى مسكنه ، ولكنى فضلت ــ بعد تفكير ــ السهرة فى أسرة البنسيوْن لأوثق علاقاتى بأفرادها . رأيت صينية كبيرة مليئة بالشواء فتعجلت الشراب لأتزود بالشجاعة الضرورية للهجوم . وهيمن علينا جو أسطورى فأنشدت أسطورة عن « آل البحيرى » ومركز وكيل الحسابات ، لا على سبيل الفخر الكاذب وحده ــ ولكن تمهيدا للطريق أمام الثروة المنتظرة من

مغامرة على بكير . وانقض علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم . أما سمعتهم ؟.. ما قولكم ؟.. أتريدون رأيى صراحة ؟. أدركت بالغريزة أننى ممثل الثورة ، مع احتمال مشاركة منصور فى ذلك . وانهال الثناء وتبادلنا الأنخاب . ولمحت زهرة فقلت لنفسى إنها ممثلة الثورة الأولى ، وتذكرت كيف دعت لها أمامى مرة وكيف لفحنى صدق الدعاء وحماسه البرىء . ترى أيرتاب منصور باهى فى صدقى ؟. يا صاحبى إنى بطبعى عدو أعداء الثورة ألا تفهم ؟. وإنى من الموعودين ببركاتها ألا تفهم ؟

* * *

لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت ..

ــ تذكر الملايين ثم احكم من جديد .

ــ حسن ، وما رأيك فى المنعمين الجشعين ؟

ــ رأيى أنهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها ..

* * *

وقد عشقت مدام ماريانا ، لا لأنها تحب غناءنا فحسب ولكن لخفة روحها ، ولأنها شريط مسجل يعيد ذكرياتها الخاصة بحنين يونانى عتيد . ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من حياتى الخاصة ، كالحب القديم ، كحب الحياة الطيبة الناعمة . وهى ترجع فى الأصل إلى قوم مهاجرين ، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذى يوفر لهم السعادة .

وعامر وجدى أثر قديم اكتشفه منصور باهى . فترة جذابة من

تاريخنا الذى لا نكاد نعرف منه شيئا .

وعندما نوه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلا أن أحيى — فى نفسى — نفاقه الممتع . واقتنعت بأن الإنسان رغم ابتكاراته وانتصاراته ما زال غارقا حتى أذنيه فى الحماقة والسخف . ولعله من المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معا ليلا طويلا وهم يسكرون ويطربون ويملأون أنفسهم بأعذب الألحان .

* * *

ــ إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنة والنار ؟

ــ الجنة هى المكان الذى يتمتع فيه الإنسان بالأمن والكرامة ، أما النار فهى ما ليس كذلك ..

* * *

وعندما يضحك منصور لقفشاتى يتبدى كطفل رائع ، فراودنى أمل بأننى سأهتدى إلى الدرب الموصل إلى قلبه ، وبأن صداقة حارة ترصدنا فى نهاية السهرة . أما حسنى علام !، ليحيا حسنى علام، فقد قدم وحده للسهرة زجاجتين من الديوارس . تسلطن على مقعده كعمدة ، يملأ الكؤوس ويوزعها ، ويجلجل بضحكاته ، وعندما اختفى فجأة عقب منتصف الليل منيت الجلسة بخسارة فادحة .

ولم أستمتع بأم كلثوم كالعادة ، ولا رددت معها بعض المقاطع ، ولكن نشواتى تفاعلت كسيال كهربائى مع زهرة . عندما تجىء وعندما تذهب ، وهى جالسة عند البارفان تتفرج على عربدتنا بعين داهشة

باسمة . وبالنظرات المختلسة تعانقنا ، وتبادلنا القبلات والأشجان .

* * *

لا شك أننى رأيت هذا الرجل من قبل . كلا كان مقبلا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلا عليه من ناحية الميدان . سرعان ما عرفت طلبة مرزوق !. رأيته لأول مرة بملابسه الكاملة متدثرا بمعطفه والكوفية مغطيا رأسه بطربوش غامق الحمرة . صافحته بإجلال ثم دعوته إلى فنجال قهوة . أذعن لإلحاحى فجلسنا معا إلى مائدة خلف الزجاج المغلق المطل على البحر . كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحدق بتمثال سعد وفى السماء غيم رقيق تضىء الشمس أطرافه بلون ماسى . تبادلنا حديثا عاديا لا معنى له ولا طعم ، ولكن حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودد إليه . شىء فى أعماقى قال لى إنه لا يمكن أن يكون خالى الوفاض تماما . أجل هناك طريقة أو أخرى ، ولعله يود أن يستثمر ما لديه ولكن الخوف يكبله . وقلت تفريعا عن حديث المعيشة :

ــ من العبث أن يعتمد شاب مثلى على مرتب وظيفته .

ــ وما حيلته فى ذلك ؟

خفضت صوتى كأنما أودعه سرى وأنا أقول :

ــ مشروع تجارى .. هذا ما أفكر فيه ..

ــ ومن أين لك بالمال ؟

فقلت وأنا أدارى أفكارى بابتسامة بريئة :

— أبيع بضعة أفدنة ثم أبحث عن شريك ..

— ولكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة ؟

قلت ضاحكا :

— على المشروع أن يبقى سرا من الأسرار .

تمنى لى التوفيق ثم بسط الجريدة ليلقى عليها نظرة . كأنما قد نسى الموضوع تماما . جائز أن يكون صادقا ، ومحتمل أن تكون مناورة ، ولكن أدركنى إحساس باليأس منه .

وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقية وقال :

— ولا شك أنك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة ، وبخاصة إذا قورنت بالمنطقة الغربية ..

ها هو يتحدث فى السياسة الداخلية بلغة السياسة الخارجية . أجبته موافقا فعاد يقول :

— ليس لدى روسيا ما تقدمه إلى بلد يدور فى فلكها ، أما أمريكا ..

— ولكن روسيا قدمت لنا بالفعل مساعدات قيمة !

فقال بعجلة :

— الوضع مختلف ، نحن لا ندور فى فلكها ..

وبدا حذرا حتى ندمت على اعتراضى . وراح يقول :

— الحق أنهما — روسيا وأمريكا — سيان فى رغبة التسلط على العالم ، لذلك فموقف عدم الانحياز الذى اعتنقناه حكمة وأى حكمة ..

أسفت على أنه أفلت من يدى ، وأنه لا سبيل إلى استرداد الأرض

المفقودة قريبا . وقلت :

— الحق أنه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دموية لا تبقى ولا تذر !

فوافقنى بطربوشه وهو يقول :

— الله كبير ، وقد أنقذنا بحكمته !

* * *

أين كنت ؟. لم تشرفنا منذ ثلاثة أيام . كيف تذكرتنى أخيرا ؟. لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على الرف ؟. ألم أقل لك إنك خسيس وابن حرام ؟. لا توجع رأسى بالأعذار السخيفة . لا تحدثنى عن عملك الخطير بالشركة . لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملنى . جعلت أبتسم وأصب النبيذ فى كوبين وباطنى يضيق بها لحد التقزز . ها هى تلعب معى دور الطاغية فلا بد من التخلص منها . يجب أن أتحرر منها إلى الأبد . ولكن انجابت هموم الأرض عن صدرى ، انجابت جميعا بمقدم زهرة حاملة الشاى إلى . تعانقنا طويلا . قبلت شفتيها وخديها وجبينها وعنقها . استمتعت بشفتيها بوعى مركز وهى تطبع شفتيهاعلى شفتى . ثم ابتعدت قيراطين عنى وهى تتنهد وتقول هامسة متشكية :

— يخيل إلىّ أحيانا أنهم يعرفون ..

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحب :

— لا يهمك ..

— أنت لا يهمك شىء ولكن ..

ــ يهمنى شيء واحد يا زهرة ..

ورنوت إليها مليا لأترجم لها ما أعنيه بعينى ثم قلت برغبة صادقة :

ــ لنعش معا بعيدا عن هنا !

فتساءلت بارتياب :

ــ أين ؟

ــ فى مسكن خاص بنا ..

لاذت بصمت متلهف على مزيد من القول ، ولما لم تلق منى ما يشبع لهفتها غامت عيناها بخيبة أمل ، وتساءلت :

ــ عم تتحدث ؟

ــ إنك تحبيننى كما أحبك ...

قالت بصوت خافت :

ــ أنا أحبك ولكنك لا تحبنى ..

ــ زهرة !

ــ إنك تنظر إلىّ من فوق كالآخرين ..

قلت بصدق كامل :

ــ إنى أحبك يا زهرة ، من كل قلبى أحبك والله شهيد .

فكرت قليلا بكدر ثم ساءلتنى :

ــ أتعتبرنى إنسانة مثلك ؟

ــ وهل فى ذلك من شك ؟

هزت رأسها نفيا . أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدها فقلت :

ــ توجد مشاكل لا حل لها ..

واصلت هز رأسها مقطبة هذه المرة عن غضب وقالت :

ــ واجهتنى مشاكل كذلك وأنا فى القرية ولكننى لم أخضع لها ..

لم أتصور أنها معتزة بنفسها لذاك الحد . شعرت بأن الحب يجرفنى معه إلى الهاوية فغرزت قدمى فى الحافة راميا بثقلى إلى الوراء . تناولت يدها بين يدى ، قبلت ظهرها وبطنها ، وهمست فى أذنها :

ــ أحبك يا زهرة ..

* * *

كلما نظرت إلى وجه حسنى علام القوى الجميل حلمت بالليالى الملاح . ولكنى علمت ذات يوم بالمشروع الذى جاء الإسكندرية من أجل دراسته وتنفيذه فتغيرت نظرتى إليه . طلبة مرزوق وهم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أسقطه من الحساب أما حسنى علام فرجل قد عقد العزم على العمل ، وعلى أن أجد لنفسى دورا فى ذلك المشروع . ليس الأمر مجرد عمل ونجاح ولكنه قد ينقذنى فى اللحظة الأخيرة من أفكار على بكير الجهنمية . المؤسف حقا أن حسنى علام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه . إنه يتحدث أحيانا عن المشروع ولكنه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعا بسيارته فى سرعة جنونية ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة . قلت له مرة :

ــ الرجل العملى لا يضيع وقته فى اللهو .

فضحك وسألنى :

ــ كيف يضيعه إذن ؟

فقلت بلهجة من يغير على مصلحته :

ــ يدرس ويفكر ثم ينفذ .

ــ جميل ما تقول ، ولكنى لا يحلو لى الدرس والتفكير إلا وأنا ألهو !

ثم وهو يقهقه :

ــ نحن نعيش الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة !

تركته وأنا أحدث نفسى قائلا : « يا ربى .. أريد أن أفيد وأن أستفيد فما عسى أن أصنع ؟ ».

* * *

تطايرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا . وصحت غاضبا :

ــ كل مرة !.. هو حساب الملكين ؟!

وتطايرت الشتائم بيننا . وقد ذهل محمود أبو العباس الذى صحبنى إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث فى الحساب ومسك الدفاتر . وقمت مصمما على الذهاب فمضى الرجل معى . وعند باب العمارة رجوته أن يرجع فيعلنها بأننى قررت الذهاب بغير رجعة .

ومضيت إلى ميرامار ولكننى لم أدرك أننى مطارد إلا وزهرة تفتح لى الباب . عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاى وصوت صفية يزعق :

ــ تريد أن تهجرنى ؟.. تظننى طفلة أو لعبة ؟!

تخلصت منها بجهد ولكنها كانت قد اقتحمت الشقة . قلت لها هامسا ولاهثا :

ــ اذهبى .. الناس نيام !

فصرخت بصوت غليظ :

ــ تنهبنى وتهرب !.. أكلتك وشربتك وكسوتك وتريد أن تهرب يا بن الحرام !

لطمتها فلطمتنى . اشتبكنا فى صراع مرير . حاولت زهرة التخليص بيننا فلم تفلح فقالت لها :

ــ من فضلك .. هذا بيت محترم ..

ولما لم يجد القول صاحت بها :

ــ اذهبى وإلا استدعيت البوليس !

تراجعت خطوة وهى تلتفت نحو زهرة . دهشت لمنظرها . رددت عينيها بينى وبينها ، ثم هتفت بها بعجرفة :

ــ أنت يا خدامة كيف ..

قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكت فاها . انقضت على زهرة فانهالت عليها لكمات الفتاة القوية حتى انهارت أو كادت . واستيقظ البنسيون ففتحت الأبواب ودبت الأقدام ، وإذا بحسنى علام يسبقهم إلينا فيأخذ صفية من يدها ويذهب بها خارجا .

ذهبت إلى حجرتى أعمى من الغضب . لحقت بى المدام وهى تتساء عما جرى فى انزعاج . أعلنت لها أسفى ولكنها سألتنى :

ــ من هى ؟

قلت مختلقا كذبة إنقاذا للموقف :

ـــ كانت خطيبتى ثم فسخت خطبتها !

قالت وهى تهز رأسها :

ـــ إن سلوكها يثبت أنك كنت على حق فى معاملتها ولكن ..

وسكتت لحظات ثم استأنفت قائلة :

ـــ ولكن أرجو أن تسوى حسابك معها بعيدا عن هنا !

ثم قالت وهى تغادر البنسيون :

ـــ إنى أعيش بفضل سمعتى الطيبة !

ولما جاءت زهرة فى موعدها كان وجهها ما يزال منطبعا بآثار الحادث ، وقد شكرتها ، واعتذرت لها عما أصابها . تبادلنا نظرات عميقة أليمة حتى اضطررت أن أقول لها :

ـــ لقد هجرتها من أجلك ..

سألتنى بخشونة :

ـــ من هى ؟

ـــ امرأة ساقطة ، من الماضى ، اضطررت إلى أن أكذب على المدام فأقول لها إنها كانت خطيبتى !

لثمت خدها فى امتنان وأسف ..

* * *

صوت الريح ينطلق فى الخارج كرعد متصل ، جو الحجرة يقطر عصارة المساء رغم أن النهار لم يشارف الأصيل بعد ، فتخيلت الغيوم

المتراكمة فى السماء وتخيلت جبال الأمواج . ولما جاءت زهرة ـــ ولم أكن رأيتها منذ لقاء أمس ـــ أضاءت المصباح . كنت أعانى انتظارها طيلة الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء :

ـــ لنذهب يا زهرة !

وضعت القدح على الترابيزة وهى ترمقنى بعتاب مر فقلت :

ـــ سنعيش معا إلى الأبد ، إلى الأبد ..

سألتنى متهكمة :

ـــ ولا توجد مشاكل فى تلك الحال ؟

أجبت بصراحة مؤسفة :

ـــ المشاكل التى أعنيها إنما يخلقها الزواج !

تمتمت بغضب مكتوم :

ـــ يجب أن أندم على حبى لك ..

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص :

ـــ لا تقولى ذلك يا زهرة ، عليك أن تفهمينى ، أنا أحبك ، ومن غير حبك فلا معنى للحياة ولا طعم ، ولكن الزواج سيخلق لى مشاكل من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل ، إنه يهدد مستقبلى فضلا عن أنه سيهدد حياتنا المشتركة ، فما العمل ؟

قالت بغضب أشد من الأول :

ـــ لم أكن أعرف أننى يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب :

ـــ ليس أنت، لكنه الغباء، الحواجز الصلبة، الحقائق العفنة، ما العمل؟

ضيقت عينيها بحنق وقالت :

ــ ما العمل حقا ؟.. أن تجعل منى امرأة مثل امرأة أمس !

هتفت بيأس :

ــ زهرة .. لو كنت تحبيننى كما أحبك لفهمتنى بوضوح لا لبس فيه !

فقالت بحدة :

ــ إنى أحبك ، خطأ لا حيلة لى فيه .

ــ الحب أقوى من كل شىء ، من كل شىء ..

فاعترضت ساخرة :

ــ لكنه ليس أقوى من المشاكل !

تبادلنا نظرات صامتة . أنا محموم يائس وهى عنيدة غاضبة . ولولا قوة إرادتى ، أو لولا خوفى لانهرت تماما . وفكرت بسرعة أشد من البرق ثم قلت :

ــ زهرة ، توجد طرق وسطى ، مثل الزواج الإسلامى الأصلى !

حل التساؤل فى عينيها محل الغضب فقلت وأنا لا أعـرف عـن الموضوع أكثر من ذكريات غامضة :

ــ نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل ..

ــ كيف كانوا يتزوجون ؟

ــ أعلن بينى وبينك أننى أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله !

ــ بلا شهود ؟

ــ أمام الله وحده !

فقالت محتجة فى استياء :

ــ جميع من حولنا يتصرفون وكأنهم لا يؤمنون بأن الله موجود !

ثم هزت رأسها وقالت بإصرار :

ــ لا ..

* * *

هى عنيدة كالصلب . ليست رحلة سهلة كما حلمت . ويئست من إقناعها تماما . إنى على استعداد ــ إذا وافقت ــ أن أعاشرها إلى الأبد مضحيا بالزواج وآمالى المعقودة عليه . وفكرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكن حبها بقى عنيدا ــ مثلها ــ ومتشبثا بقلبى . ولم تقع بيننا جفوة . كانت تجيئنى بالشاى فى وقته ولا تصدنى إذا قبلتها أو ضممتها إلى صدرى . وقد أذهلنى أن أراها ــــ فى المدخل ــ مكبة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائية . ثبتت عيناى عليها غير مصدقتين . وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدى مستسلما للفوتيل ، فقالت لى المدام باسمة :

ــ انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان !

وألقت عليها نظرة تشجيع وهى تقول :

ــ اتفقت مع جارتنا المدرسة .. ما رأيك ؟

إنه لحدث . أوشكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس :

ـــ برافوا !.. برافو زهرة !

وكان العجوز يرمقنى بعينيه الغائمتين فداخلنى منه خوف لا أدريه فغادرت البنسيون . بلغ بى التأثر مبلغا هز أعماق . وصوت باطنى قال لى إننى إذا استهنت بحب الفتاة فإن الله لن يبارك لى قط . ولكننى لم أهادن فكرة الزواج المرعبة . الحب عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو آخر . أما الزواج فهو مؤسسة ، شركة كالشركة التى أعمل وكيلا لحساباتها ، له لوائح ومؤهلات وإجراءات . إذا لم يرفعنى من ناحية الأسرة درجة فما جدواه ؟. إذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف أفتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم فى زماننا المتوحش العسير ؟! أما مرجع تعاستى فهو أننى أحب فتاة غير مستوفية لشروط الزواج . ولو قبلت حبى بلا قيد لضحيت فى سبيلها بالزواج الذى أحن إليه منذ البلوغ !

ـــ همتك عالية يا زهرة !

قلت لها ذلك وأنا أرمقها بإعجاب ، ثم قلت بأسف :

ـــ ولكنك ترهقين نفسك وتبددين أجرك !

قالت بكبرياء وهى واقفة أمامى تفصل بيننا الترابيزة :

ـــ لن أبقى جاهلة !

ـــ وما فائدة العلم ؟

ـــ سأتعلم بعد ذلك مهنة فلن أبقى خادمة ..

عض الألم قلبى وعقل لسانى ، أما هى فقالت بنبرة جديدة :

ـــ جاء أهلى اليوم ليقنعونى بالرجوع إلى القرية !

رفعت إليها عينى مستطلعا وأنا أدارى قلقى بابتسامة فتجاهلتنى خافضة جفنيها .

ـــ وماذا كان جوابك ؟

ـــ اتفقنا على الرجوع فى أوائل الشهر القادم !

قلت بجزع :

ـــ حقا !.. ترجعين إلى العجوز ؟!

ـــ كلا ، لقد تزوج !

ثم بصوت خافت :

ـــ تقدم لى رجل غيره .

قبضت على يدها بشدة وتوسلت قائلا :

ـــ لنذهب معا ، غدا ، اليوم إن شئت ..

ـــ اتفقنا على الرجوع أول الشهر ..

ـــ زهرة هل قد قلبك من حديد ؟

ـــ إنه حل بلا مشاكل !

ـــ ولكنك تحبيننى يا زهرة !

فقالت بامتعاض :

ـــ الحب شىء والزواج شىء آخر ، أنت علمتنى ذلك .

عند ذاك خانتها شفتاها فوشتا بابتسامة خفيفة فهتفت :

ـــ يا لك من شيطانة يا زهرة !

وغمرنى فيض من الارتياح والفرح . ودخلت الحجرة عند ذاك المدام وهى تحتسى الشاى من قدح فى يدها . جلست على حافة الفراش وهى تقص على قصة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العـودة . وتساءلتُ بمكر كاذب :

ـــ ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها ؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوادة عالمة ببواطن الأمور ثم قالت :

ـــ أهلها الحقيقيون هنا يا مسيو سرحان !

تجنبت النظر إلى عينيها . تجاهلت مغزى قولها تماما . ولكنى خمنت أن الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرة . ولعل سوء ظنها قد جاوز الحدود . ووجدتنى فى النهاية سعيدا بنصر وهمى أما فى الواقع فإن العناد الذى سد فى وجهى باب الأمل لم يلن لحظة واحدة . وساءلت نفسى متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيا ؟!

* * *

بدا المنظر مألوفا وفاترا إلى حد ما . المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهى تتابع أغنية أفرنجية . أما عامر وجدى فقد راح يسمِّع لزهرة بعض الكلمات . ودق الجرس فإذا بالقادمة مدرسة زهرة . معذرة .. الشقة مزدحمة بالضيوف ، فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا . كرم منها بلا ريب . واستقبلناها بترحاب وأدب . وهى وسيمة وأنيقة وموظفة . راقبتها وهى تدرس لزهرة ، ووجدتنى منساقا للمقارنة بينهما بتأمل وأسى . هنا الفطرة والجمال والفقر والجهل وهناك الثقافة والأناقة

فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر

والوظيفة . آه لو تحل شخصية زهرة فى بيئة الأخرى وإمكانياتها . وتطفلت المدام على الدرس لتشبع حب استطلاعها الأبدى فعرفنا الاسم والأسرة وحتى الأخ المنتدب للعمل فى السعودية . وإذا بى أسألها :

ــ أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة من هناك ؟

فأجابت فى تحفظ بأنها ستسأل عن أمكان ذلك .

وغادرت البنسيون إلى كافية دى لا بيه لمقابلة المهندس على بكير . نظر إلى بثقة وقال :

ــ كل خطوة ترسم بدقة ، والنتائج مضمونة !

حسن ، فلنثب وثبة موفقة تجعل من زيارتنا للدنيا رحلة لها معناها وقيمتها . ثم سألنى على بكير :

ــ قابلت صفية بركات فى ديليس فهل حقا ..؟

قلت بامتعاض :

ــ عليها اللعنة !

ضحك وهو ينظر فى عينى باهتمام ثم عاد يسألنى :

ــ ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل ..؟

ــ لا تصدقها من فضلك ، متى كانت ممن يعتمد الإنسان على صدقهن ؟!

فازداد اهتماما وتفكيرا وهو يقول :

ــ إن سرنا من الأسرار التى يضن بها حتى على الزوجة والابن !

فهتفت به مؤنبا :

ــ الله يسامحك !

* * *

قلت لنفسى يا للعجب . إنها نظرة يطيب بها غرور الرجل . لم تلح فيها ابتسامة ولا رعش هدب ، ولكنها ــ المدرسة ــ حولت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتنى بها . لم تدم أكثر من ثوان . هربتها إلى فى غفلة من زهرة وعامر وجدى . لم تدم أكثر من ثوان . وقد أتلقى عشرات مثلها فلا تهزنى شعرة وأعتدها نظرة عابرة ، غير أنها عكست ومضة معبرة لا توصف وكأنما أبلغتنى رسالة كاملة . غيرت خط سيرى فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر . تدبير بلا هدف ، وليس وراءه عاطفة ، ولكنه تطلع ــ من فراغ ويأس ــ إلى مغامرة ، أية مغامرة . ولم تكن بالمثال الذى يمكن أن يفتننى ولا حتى يثيرنى ولكنها ــ فيما بدا ــ دعتنى إلى نزهة فى يوم عطلة شديد الملالة .

وإذا بها تمر أمام المقهى واضعة يديها فى جيبى معطفها الرمادى . تبعتها عن بعد حتى لحقت بها فى أثنيوس . ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالمترددة فاقتربت منها وحييتها . ردت التحية فدعوتها إلى قدح شاى فقالت لى إنها كانت تفكر فى الجلوس بعض الوقت . احتسينا الشاى وتناولنا قطعتين من الجاتوه ، ثم دار حديث تعارف سطحى ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل . وسياق الحديث وحده هو الذى جعلنى أطالب بموعد قريب . وتقابلنا فى بوفيه سينما أمير ، ثم

شهدنا الفيلم معا ، وكان على أن أحدد نوع المغامرة ولونها ، ولم أجدها بالقياس إلى قلبى جديرة بالمثابرة والتعب ، ورغم ذلك فعندما دعتنى إلى زيارة أسرتها قبلت !. أدركت أنها تبحث عن زوج . وزنتها بعقل بارد ، قدرت المرتب والدروس الخصوصية وتذكرت فى ذات الوقت يأسى المتزايد من زهرة ، وفى أسرتها عثرت على إغراء جديد وهى ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز . وجدتنى أفكر فى الأمر بجدية لا طمعا فى مالها ولا حبا فيها ولكن انسياقا لحنينى القديم إلى الزواج . وزهرة ؟!. قد أجد شيئا من عزاء عن غدرى بها فى الزواج نفسه الذى سيربطنى إلى الأبد بامرأة لا أحبها ، ولكن هل أستطيع حقا أن أقهر الحب المشبوب فى قلبى ؟!

* * *

أشار إلى راجيا أن أنتظر . كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونا ، فلما فرغ منه أقبل علىّ وهو يقول :

— أستاذ .. سأخطب زهرة !

داريت انزعاجى بابتسامة وسألته :

— مبارك ، هل تم الاتفاق بينكما ؟

أجاب منتفخا بالثقة :

— تقريبا !

نبض قلبى بألم أليم وأنا أسأله :

— ماذا تعنى بقولك « تقريبا » ؟

— هى زبونة يومية ، لم نطرق الموضوع صراحة . ولكنى خير من يفهم النسوان !

كرهته فى تلك اللحظة لحد الموت ، أما هو فسألنى :

— ما رأيك يا أستاذ فى أخلاقها ؟

— طيبة جدا والحق يقال .

سأخطبها من مدام ماريانا حتى أهتدى إلى أهلها .

تمنيت له التوفيق ثم ذهبت ولكنه لحق بى بعد خطوتين وهو يسأل :

— ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها ؟

— كيف علمت به ؟

— أنبأنى به عامر بك ، العجوز ..

— جملة ما أعرفه أنها عنيدة وأبية النفس .

فضحك وهو يقول فى مباهاة :

— إنى أعرف الدواء لكل داء ..

* * *

كانت خطبة .. وكان رفض .

وبقدر ما أرضانى ذلك بقدر ما ضاعف من إحساسى بالمسئولية . مزقنى القلق ، اجتاحنى الحب ، تراجعت علية من مقدم الصورة حتى لاحت خلفية باهتة .

وقبضت على معصمى زهرة بحنان وضراعة وقلت بحرارة وتوسل :

ـ أنقذينى .. ولنذهب فى الحال !

تخلصت منى بجفاء وهى تقول :

ـ لا تعد إلى ذلك ، إنى أكره سماعه !

لن نتلاقى أبدا . هى تحبنى ولكنها ترفض التسليم بلا قيد ، وأنا أحبها ولكنى أرفض القيد . ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقى الذى تمحى عنده الإرادة والعقل .

وقد دعانى السيد محمد والد علية للغداء فلبيت الدعوة . ودعوت الأسرة فى نهاية الأسبوع للعشاء فى باستوريدس . انقلب الجو بعد أن استقر بنا المجلس فصفرت الريح وانهمر المطر . ومضيت أقنع نفسى طوال الوقت بأن علية فتاة ممتازة وأنها تعد بزواج موفق . وسيمة .. أنيقة جدا .. موظفة .. مثقفة .. ماذا تريد أفضل من ذلك ؟. ولو لم أرق فى عينيها ..، مالى أتحفظ لهذا الحد ؟، إنها تحبنى بلا ريب ، الراغبة فى الزواج راغبة فى الحب أيضا . ثم ما هذا الذى يعدنا بالفراديس دون أن يفى ولو بشىء من وعده ؟. واشتدت العاصفة فى الخارج حتى خيل إلى أنها ستقلع المدينة الجميلة من جذورها فتضاعف شعورنا بنعمة الدفء والأمان فى الداخل . وقلت لنفسى إننى اقتحمت أبواب هذه الأسرة المحترمة مدفوعا بانفعالات عفوية ولكن بلا خطة موضوعة أو نية صادقة ، وبلا إمكانية مالية مناسبة ، وأن على أن أصارحهم بحقيقة مركزى وبمسئوليتى العائلية تاركا لهم بعد ذلك الخيار . وقد جر الحديث المتشعب إلى « الزواج » كموضوع عام فقال والد علية :

ـ على أيامنا كنا نتزوج مبكرين فنهنأ برؤية أولادنا وهم رجال مسئولون !

فحركت رأسى حركة تنم عن الحسرة وأنا أقول :

ـ تلك أيام خلت ، أما هذه الأيام فهى منحوتة من العسر والصخر ..

فمال نحوى قليلا ثم قال بصوت كالهمس :

ـ ابن الحلال ثروة فى ذاته ، وعلى الأمناء من الناس أن يذللوا له العقبات ..

* * *

يا له من وجه مكفهر . كان قد انتبه إلى اقترابى من معرضه وأنا على بعد خطوتين منه فسرعان ما اكفهر وجه . رمانى بنظرات غاضبة حتى عجبت لشأنه . ثم تساءل متهكما دون أن يقدم لى الجريدة كعادته كل يوم :

ـ لم أخفيت عنى أنك عشقتها ؟

بوغت بقوله ، ولهجته الوقحة ، وهتفت به :

ـ أنت مجنون !

فصاح بى :

ـ أنت جبان !

فقدت صوابى فلطمت وجهه بظهر كفى . وإذا به يهوى براحته الكبيرة على خدى . وتبادلنا الضرب بلا وعى ولا رحمة حتى فرق

الواقفون بيننا . انفصلنا ونحن نتبادل أفذع الشتائم . وسرت وقتا على غير هدى وأنا أسائل نفسى عمن وضع تلك الفكرة الخبيثة فى رأسه الخاوى .

وقد مضى زمن طويل قبل أن أراه مرة أخرى . دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفا فى مطعم بانيوتى فوجدته جالسا فى مقعد صاحب المحل وراء صندوق الماركات . هممت بالتراجع فوثب من مجلسه إلىّ ثم احتوانى بين ذراعيه وهو يقبل رأسى ، وأبى إلا أن يدعونى للعشاء على حسابه !. واعتذر إلىّ عما سلف ثم اعترف لى بأن حسنى علام هو الذى افترى على تلك الكذبة !

* * *

— عزيزتى .. أرجو ألا تعلم زهرة بما بيننا !

كنا نجلس على شاطئ المحمودية بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ . وكان اتصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالى . إنها لا تدرى شيئا عن الأسباب الحقيقية التى ساقت زهرة إلى التتلمذ عليها ، كما أن زهرة لا تتصور أن مدرستها قررت الاستيلاء على رجلها . وقد رمقتنى عليه بارتياب وهى تسأل :

— لم ؟

— إنها ثرثارة !.. والثرثرة غير مستحبة فى اللحظة الراهنة من علاقتنا ..

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت :

— ولكن علاقتنا ستعرف عاجلا أو آجلا ..

فقلت بصراحة فجة :

— يخيل إلى أحيانا أنها تنظر إلى نظرة خاصة ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة شاحبة فاترة :

— لعل لديها من الأسباب ..

فقلت بجدية :

— جميع النزلاء يمازحونها أحيانا ، وقد فعلت مثلهم ، هذا كل ما هنالك ..

كانت العلاقة قد تطورت من ناحيتها إلى حب . ولم يكن يهمنى أن تصدقنى بالكامل بقدر ما يهمنى أن تأخذ حذرها من زهرة !. وإذن فقد انتصر العقل على القلب ولم يبق إلا أن أعلن الخطبة . على ذلك ترددت ، وجعلت أؤجل اليوم الموعود بحجة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل دورهم التقليدى . وكلما مر يوم توترت مشاعرى حيال زهرة وحز فى نفسى غدرى المخزى بها . وكنت أتنهد بحسرة وأقول : آه لو تلين .. لو تذعن .. فأهبها قلبى إلى الأبد ..

* * *

رعد !.. زلزال ؟.. مظاهرة ؟.. سقوط جسم بالحجرة ؟!

أخرجت رأسى من تحت الغطاء إلى ظلام دامس . أنا هو أنا .. هذا فراشى ببنسيون ميرامار .. ولكن ما هذا ؟.. رباه .. إنه صوت زهرة .. إنه يطرق بابى .

هرعت إلى الخارج . رأيتها على ضوء المصباح السهرى مشتبكة مع حسنى علام فى صراع مميت . من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف كله . أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتى بحسنى . وضعت يدى على كتفه برفق هامسا :

ـــ حسنى !

لكنه لم يسمعنى فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى :

ـــ حسنى .. أجننت ؟!

دفعنى بظهره بوحشية ولكنى قبضت على منكبه وقلت له بحزم :

ـــ ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك !

وإذا به يستدير نحوى ويلطمنى على جبهتى . جننت من الغضب فانهلت عليه ضربا . ولم يقف الضرب بيننا حتى أدركتنا المدام . وقد عاملت المدام المعتدى برفق لا يستحقه . إنى أفهم العجوز جيدا . من خلال نفسى أفهمها حقا . كلانا حام حول حسنى ممنيا النفس بالاستفادة من مشروعه الخيالى . وهى مترددة تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وأنا متحفز طيلة الوقت للوثوب . ها هو الباب يغلق فى وجهى نهائيا ، أما هى فتكاد تعنف المضروب من أجل خاطر الضارب .

وعقب ذلك بأيام رأيته ـــ حسنى علام ـــ خارجا من الجنفواز حوالى الواحدة صباحا مصطحبا معه صفية بركات . لم أدهش إلا قليلا ثم تذكرت يوم مضى بها من البنسيون . إنها تماثله فى التهور والحلم بالمشاريع ، وسيجمع بينهما الحب والأحلام . وكنت ـــ تلك الليلة ـــ

قد سهرت فى حانة جورج مع على بكير ورأفت أمين . وسرنا فى الكورنيش متشجعين بصفاء الجو وحرارة الخمر . ولا حديث لرأفت أمين ـــ وبخاصة إذا سكر ـــ إلا الوفد . وقد وضح لى أن على بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى . من ناحية أخرى لم أكن أهتم فى أعماق بالسياسة رغم نشاطى الموفور فيها .

أما رأفت أمين فراح يتحدث بلسان مخمور عن الوفد وأيامه . وسألته ساخرا :

ـــ ألا تعترف بالموت ؟

فقال بصوت دوى فى الطريق الخالية :

ـــ قل فى الثورة ما تشاء ، لا أنكر قوتها الشاملة ، ولكن الشعب مات بموت الوفد !

عند ذلك وقع بصرى على حسنى علام وصفية بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كديَّين قويين ، قلت ضاحكا وأنا أشير إليهما من بعيد :

ـــ ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل !

وعندما آن لنا أن نفترق همس على بكير فى أذنى :

ـــ عما قريب سنعطى إشارة البدء فى العمل .

* * *

دخلت البنسيون والنوم يخيم على أرجائه . وتراءى لى باب منصور باهى الزجاجى وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى

الاستئذان فالدخول ، بلا باعث حقيقى . نظر إلى بشىء من الدهشة وهو جالس على المقعد الكبير . تتجلى فى عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة وتفكير . قلت وأنا أتخذ مجلسا على كرسى قريب :

— لا تؤاخذنى .. أنا سكران !

فقال دون مبالاة :

— هذا واضح ..

ضحكت ، ثم قلت معاتبا :

— الحق أنى عجزت عن جذبك إلى ، يبدو أنك شديد الانطواء !.

أجاب بأدب ولكن دون تشجيع ما :

— لكل طبعه ..

— لا شك أن رأسك يرهقك !

أجاب بغموض :

— الرأس أصل البلاء !

فقلت ضاحكا :

— طوبى لنا نحن أصحاب الرءوس الفارغة !

— لا تبالغ فإنك مركز نشاط لا يخمد ..

— حقا ؟.

— نشاطك السياسى .. أفكارك الثورية .. غرامياتك !

صدمتنى العبارة الأخيرة من قوله ولكن ضاعت الصدمة فى مد الموجة الخمرية . ووضح لى أنه لا يرحب بى — إنه لا يرحب بأحد —

فصافحته ثم ذهبت .

* * *

عندما تجىء زهرة إلى حجرتى بالشاى أتخلى عن أفكارى ومشروعاتى ويتفرغ قلبى للحب الحقيقى وحده . ولكن وجهها تبدى صلبا متحجرا مصفرا من الغضب . ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفزة المخيفة ملأت قلبى بالقلق والتشاؤم . قلت بإشفاق :

— زهرة .. لست كعادتك !

قالت بحنق مفترس :

— لولا أن لله حكمته التى هى فوق العقول لكفرت !

ماج صدرى بالقلق فسألتها :

— هل من هم جديد يضاف إلى همومنا المستعصية ؟!

قالت باقتضاب وازدراء :

— بعينى رأيتكما ..

عرفت من تعنى فغاص قلبى فى هاوية عميقة من صدرى وسألت بيأس :

— من تعنين ؟

— الأستاذة !

ثم بضراوة وحقد :

— الخطافة الداعرة ..

ضحكت . يجب أن أضحك . وأن أضحك ضحكة الاستهانة التى

نواجه بها عادة غضبه خاطئة فى غير محلها . ضحكت وأنا أقول :

ـــ يا لك من .. صادفت أستاذتك فى طريقى فأديت لها ما ..

قاطعتنى بقسوة :

ـــ كذاب .. لم تكن مصادفة .. وقد عرفت ذلك منها اليوم !.

هتفت بانزعاج :

ـــ لا !.

ـــ اعترفت الخنزيرة بمقابلتك ، ولم يدهش أحد من والـديها ، ولكنهم دهشوا جميعا لتطفلى أنا !

خرست ، خرست تماما ، وقالت هى بتقزز وغضب :

ـــ لم يخلق الله أمثالك من الجبناء ؟

انهزمت .. تهدمت .. ومن أعماق هاوية اليأس تـوسلت إليها قائلا :

ـــ زهرة !.. كل ذلك يقوم على غير أساس .. إن هو إلا تخبط يائس .. راجعى نفسك يا زهرة .. يجب أن نذهب معا .

لم تسمع كلمة مما قلت إذ واصلت كلامها قائلة :

ـــ ماذا أفعل ؟.. لا حق لى عليك .. وغد حقير .. غر فى ألف داهية !

وبصقت فى وجهى !

غضبت . رغم موقفى المخزى غضبت . ثم صحت بها :

ـــ زهرة !

فبصقت فى وجهى مرة أخرى . أعمانى الغضب فصرخت :

ـــ اذهبى وإلا كسرت رأسك .

انقضت علىّ ولطمتنى على وجهى بقوة مذهلة . انتترت واقفا وقد جن جنونى . قبضت على يدها بقسوة ولكنها انتزعتها بعنف ولطمتنى للمرة الثانية . فقدت وعيى فانهلت عليها ضربا وصفعا وهى تبادلنى الضرب والصفع بقوة فاقت تصورى . وإذا بالمدام تهرول نحونا وهى ترطن بألف لسان . أبعدتها عنى فصحت فى جنون الغضب :

ـــ أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. وسأتزوج علية !

وجاء منصور باهى فمضى بى إلى حجرته . لا أذكر أى حديث تبادلنا ولكنى أذكر تهجمه علىّ بوقاحة غريبة ، وكيف اشتبكنا فى صراع جديد . جاء موقفه مفاجأة لى وأى مفاجأة . لم يجر لى فى خاطر أنه أيضا من عشاق زهرة !. هكذا عرفت سر نفوره الغريب منى .

ولحقت بنا المدام . قررت أن تجعل منى كبش الفداء ، العجوز القوادة . قالت إن البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته ، وإننى قلبته إلى سوق همجية للمعارك وقلة الأدب . وبصراحة وقحة قالت لى متحدية :

ـــ ابحث لك عن مسكن آخر !

لم يعد ثمة ما يدعونى للبقاء ، ولكنى أصررت على الإقامة حتى عصر الغد ، آخر الأسبوع الذى دفعت إيجاره مقدما ، وهو إصرار يرجع أولا إلى العناد والكبرياء .

وغادرت البنسيون فهمت على وجهى طويلا تحت سماء ملبـدة

بالغيوم متعرضا لدفقات متواصلة من الهواء البارد . وجعلت أتسلى بمشاهدة معارض الحوانيت المتلألئة بهدايا السنة الجديدة وأنظر بفتور إلى بابا نويل العتيد !

وذهبت إلى بدرو لموعد سابق مع المهندس على بكير . وقد سألنى :

— هل دبرت مسألة الاستمارات ؟

فأجبته بالإيجاب فقال لى :

— فجر الغد ، سوف نبدأ مع فجر الغد .

* * *

قلت لنفسى وأنا ذاهب إلى الشركة فى الصباح الباكر « مضى الفجر .. وتمت اللعبة » .

كنت مضطربا ، ونهما إلى الأخبار . اتصلت بالمصنع تليفونيا طالبا على بكير فقيل لى إنه فى المرور . إذن فقد نفذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليومى . واجتاحنى الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعللا بعذر ما ولدى مرورى أمام دار الإذاعة لمحت منصور باهى وفتاة حسناء يغادرانها معا . ترى من تكون ؟.. خطيبة ؟.. عشيقة ؟. هل تجد زهرة نفسها على الرف مرة أخرى ؟. تذكرت زهرة بحزن . لم أبرأ تماما من حبها ، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التى خفق بها قلبى الممزق بالأهواء .

ومضيت لزيارة علية محمد وأسرتها فاستقبلت استقبالا فاترا ، بل متجهما . هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولكن والدها قال لى

بغضب :

— تصور موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب !

ولما جاء ميعاد الغداء لم أدع له . غادرت الشقة بلا أمل فى وصل ما انقطع من الأسباب . والحق أنى لم أكترث لذلك كثيرا . لم يعد يفصل بينى وبين الثراء إلا ساعات ، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة .

تناولت الغداء عند بنايوتى (محمود أبو العباس) ثم ذهبت إلى مسكن على بكير ولكنى لم أجده . مضيت إلى البنسيون والنهم إلى الأخبار يحرقنى حرقا . أعددت حقيبتى وحملتها إلى المدخل . وتلفنت إلى على بكير وكم غمرنى الارتياح الساحر وصوته يرد علىّ قائلا : « آلو » .

— سرحان يقدم تحياته .. كيف الحال ؟

— كل شىء طيب .. لم أقابل السواق بعد !

— متى نعرف النتيجة النهائية ؟

— قابلنى مساء اليوم الساعة الثامنة بكازينو البجعة !

فقلت باستجابة متلهفة :

— طيب .. الساعة الثامنة مساء .. سأنتظرك فى كازينو البجعة ..

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

غادرت بنسيون ميرامار إلى بنسيون إيفا . تسكعت بين المقاهى أشرب كأسا هنا وكأسا هناك ، مبذرا نقودى بلا حساب . بالشراب

أسكت وساوس القلق وأنات الحب المحتضر . ووعدت أهلى بخير لم يحلموا به منذ وفاة أبى . وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل . التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقنى جدا ولكنى صافحته متظاهرا بالارتياح . وقد سألنى :

ـ ماذا جاء بك إلى هنا ؟

ـ موعد هام ..

ـ دعنى أرد إليك تحية من تحياتك فلنجلس معا حتى يجىء صاحبك .

جلسنا فى البهو الشتوى وهو يسألنى بصوته الأجوف من انتفاخ شدقيه :

ـ كونياك ؟

كنت ثملا ولكن كانت بى رغبة فى المزيد . شربنا وتحادثنا وضحكنا . وإذا به يسألنى :

ـ ترى هل يسمح لى بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتى ؟

ـ أعتقد ذلك ، أتريد أن تبدأ من جديد ؟

ـ كلا ولكن زوج كريمتى ـ هو ابن أخى أيضا ـ قد أثرى ثراء كبيرا .

ـ لعلك تفكر فى الهجرة ؟

لاحت فى عينيه نظرة حذرة ثم قال :

ـ كلا .. أريد فقط أن أرى ابنتى .

قربت رأسى منه وأنا أقول :

ـ هل أدلك على عزاء حقيقى ؟

ـ ما هو ؟

ـ البعض يضيقون بالثورة ، ولكن أى نظام يمكن أن يحل محلها ؟، فكر قليلا أو كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين ، فإما الشيوعية وإما الإخوان ، فأيهما تفضل على الثورة ؟!.

قال بعجلة :

ـ لا هذا ولا ذاك !

فقلت وأنا أبتسم فى ثقة وانتصار :

ـ هذا هو يقينى ، فليكن لك فى ذلك عزاء .

وأزف الميعاد ولم يجىء على بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرت فى عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يرد أحد. لعله فى طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخره؟. ألا يقدر ما يفعله التأخير بى؟. ونظر طلبة مرزوق فى ساعته ثم قال «آن لى أن أذهب» ثم صافحنى وذهب. ولم أكف عن الشراب. وأخيرا جاء الجرسون ليخبرنى بأن شخصا يطلبنى فى التليفون. وثبت واقفا ثم هرعت إلى التليفون. تناولت السماعة وقلبى يضرب بشدة:

ـ آلو .. على ؟.. لم لم تجئ ؟

ـ سرحان .. أصغ إلى .. انكشف الأمر !

تفاعلت كلماته مع وش الكحول فى أذنى وانداحت جميعا فى دوران شمل السماء والأرض :

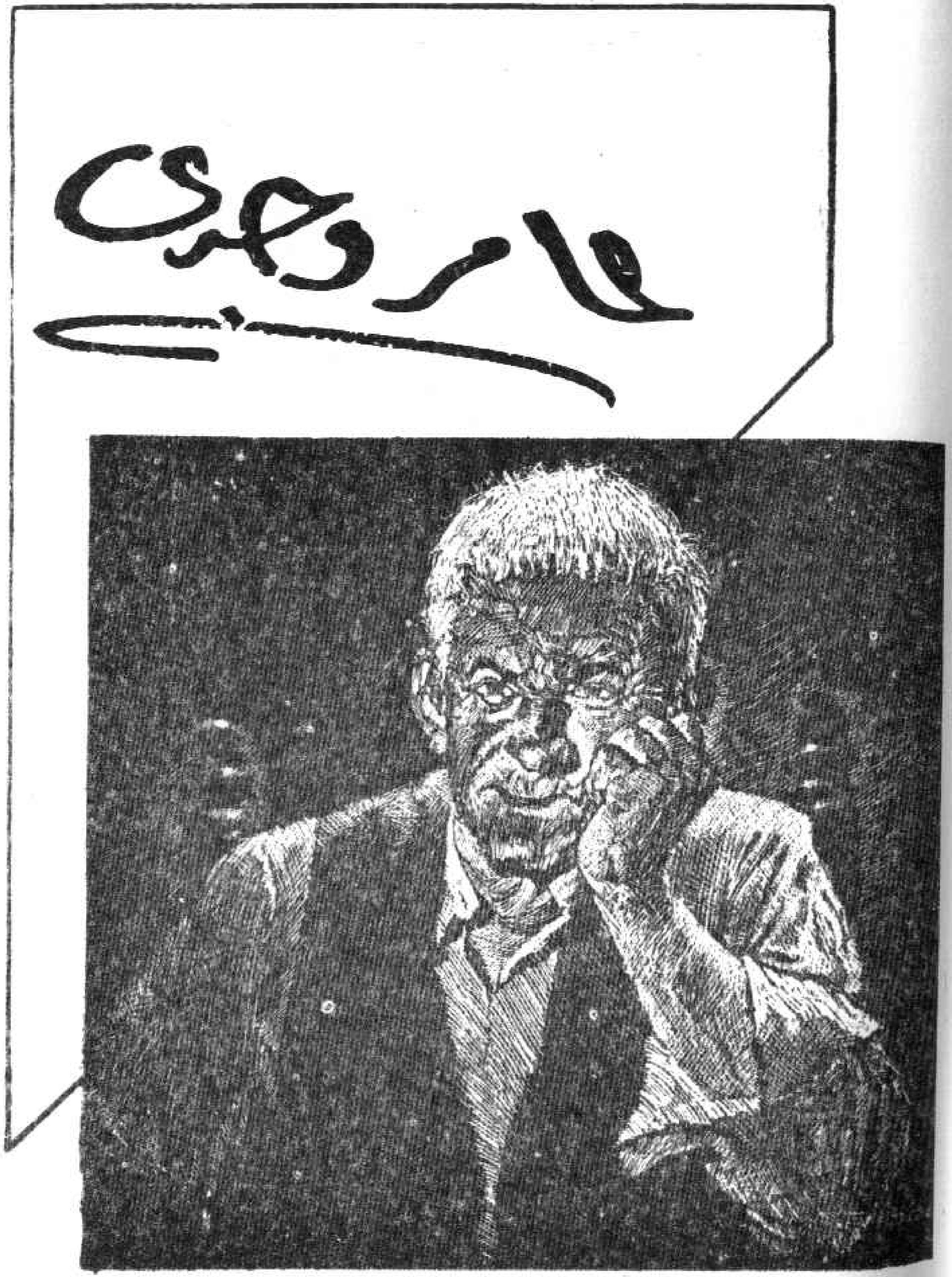

ــ ماذا قلت ؟

ــ قضى علينا !

ــ ولكن كيف ؟.. قل ما عندك دفعة واحدة !

ــ ما الفائدة ؟.. أراد السواق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع فى شر عمله .. سيعترف بكل شىء .. إن لم يكن قد اعترف بالفعل ..

سألت بريق جاف :

ــ والعمل ؟.. ماذا أنت صانع ؟

ــ قضى علينا .. سأفعل ما يمليه علىّ الشيطان .

وأغلق السكة .

إنى أرتجف ولا تكاد تحملنى قدماى. فكرت لحظة فى الهرب ولكنى عدت ــ تحت عينى الجرسون ــ إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أديت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان. فارقت موقفى إلى البار رأسا. بطريقة غير شعورية. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت فى الشرب بلا وعى وهو يرمقنى بقلـق. أصب وأشرب ثم أصب. دون كلمة أو لفتة أو تريث. ثم رفعت رأسى إليه قائلا:

ــ موسى حلاقة من فضلك ؟

تردد قليلا، ولما قرأ الإصرار فى وجهى نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبلتها شاكرا ثم أودعتها جيبى. انفصلت عن البار بشىء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجى. مترنحا.. يائسا.. متعجلا. عبرت الطريق وبودى لو أركض ركضا.

كنت يائسا .. يائسا .. يائسا ..

٥

عامر وجدى

تنغص على صفوى بالأحداث التى ألمت بالبنسيون . لقد ركنت إليه لأنعم بشىء من الهدوء الضرورى لشيخوختى . وبشىء من عزاء الذكريات عن الخيبة المريرة التى منيت بها فى ختام حياتى العملية . لم يجر لى فى الظن أنه سينقلب ميدانا لمعارك وحشية قدر لها أن تنتهى بجريمة قتل دامية .

ودب فى بعض نشاط فغادرت حجرتى منضما إلى ماريانا وطلبة مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل . وددت أن أرى زهرة ولكن اضطراب ماريانا وتهجم طلبة منعانى من استدعائها إلى جو سيضيق حتما بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق . وعلمت أن حسنى علام غادر البنسيون فى ميعاده المألوف تقريبا . إنه انفعل ساعة بالخبر الدامى ثم مضى إلى حال سبيله ، أما منصور باهى فقد تأخر به النوم على خلاف عادته . وقالت ماريانا بتأفف ..

ــ ها هو اليوم الأخير من السنة ، ختمها أسوأ ختام ، فماذا يخبئ لنا العام الجديد ؟!

فتساءل طلبة مرزوق فى ضجر عصبى :

— أى متاعب ستلاحقنا هنا !

فتمتمت بصوت واهن :

— ما دمنا أبرياء ..

فقاطعنى بحدة :

— أنت متحصن بشيخوختك فلن يضيرك شىء ..

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يفتح . ذهب إلى الحمام . رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة .

وما لبث أن ظهر من وراء البارفان ، مرتديا بدلته ومعطفه ، ولكنه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلبة . أخبرته المدام بأن إفطاره معد ولكنه رفضه بهزة من رأسه دون أن ينبس . أقلقنا منظرة بلا شك ، وكانت المدام أسرعنا فى الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له :

— اجلس يا مسيو منصور .. أأنت على ما يرام ؟

قال دون أن يجلس :

— على خير ما يرام ، لقد نمت أكثر من المعتاد ، هذا كل ما هنالك !

فقالت وهى تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنبة :

— أما سمعت الخبر ؟

لم يبد أى اهتمام بشىء فقالت :

— سرحان البحيرى .. وجد قتيلا فى طريق البالما ..

نظر إليها طويلا . لم يدهش ، لم ينزعج ، ولكنه ظل ينظر فى عينيها

كأنما لم يسمع قولها ، أو لم يفهمه ، أو أنه يعانى مرضا أخطر مما نتصور . ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر فى الجريدة فألقى عليه نظرة متمهلة هادئة ، وأبصارنا مركزة عليه ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

— أجل .. وجد قتيلا ..

قلت له باشفاق :

— إنك متعب فلتجلس ..

فقال ببرود أو لعله ذهول :

— إنى بخير ..

فقالت ماريانا :

— نحن كما ترى فى غاية من الاضطراب ..

نقل بصره بين وجوهنا ثم سأل :

— لم ؟!

— نتوقع أن يجىء البوليس فيقلق راحتنا ..

— لن يجىء ..

فقال طلبة مرزوق :

— ولكن البوليس كما تعلم ..

فقاطعه قائلا بهدوء :

— أنا قاتل سرحان البحيرى ..!

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثم نظر إلينا قائلا :

— سأذهب إلى البوليس بنفسى ..

وأغلق الباب وراءه .. تبادلنا نظرات ذاهلة ، مضى وقت ونحن نترامق فى ذهول وصمت . ثم هتفت ماريانا بخوف :

— إنه مجنون !

فقلت :

— بل إنه مريض ..

تفكر طلبة مليا ثم قال :

— ولعله هو القاتل !

فصاحت ماريانا :

— ذلك الشاب المهذب الخجول !

وقلت بإشفاق :

— إنه مريض بلا شك .

وتساءلت ماريانا :

— و لم يقتله ؟

فتساءل طلبة بدوره :

— و لمَ يعترف بأنه القاتل ؟

قالت ماريانا :

— لن أنسى صورة وجهه ، لقد مس عقله شىء ..

فقال طلبة مؤيدا رأيه :

— لقد كان آخر المتشاجرين معه ..

فقلت معترضا :

— ما من أحد إلا وتشاجر معه ..

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال :

— هناك يستقر السبب ..

فقلت محتدا :

— ولكنه الوحيد الذى لم يبد نحوها أى اهتمام خاص .

— لا يعنى ذاك أنه لم يحبها ، أو أنه لم يرغب فى الانتقام من غريمه فيها ..

— يا سيدى لقد تركها سرحان وذهب ..

— ولكنه أخذ قلبها ، كما أخذ شرفها !

— صه .. لا تفترى على الناس بغير يقين ..

وتساءلت ماريانا :

— ترى هل يذهب حقا إلى البوليس ؟

وتواصل الحديث محموما حتى أرهقنا ، وعند ذاك هتفت :

— فلنكف .. كفاية .. ولنسلم إلى المقادر ..

* * *

﴿ ... أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور * ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون * ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴾

سرعان ما تعبت عيناى من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدق الرابعة مساء . وجدت ماريانا غارقة فى الكتابة فراحت تقول لى :

ـــ أول ليلة رأس السنة تمر بى وكأنها ليلة مأتم .

فقال طلبة مرزوق بحزم :

ـــ إياكم والعودة إلى حديث الهم والكدر .

فقالت المدام بغضب :

ـــ لقد سقط النحس على البنسيون ، إنى واثقة من ذلك ، وعلى زهرة أن تذهب ، فلتبحث عن رزقها فى مكان آخر .

أصابت غضبتها قلبى فقلت بإشفاق :

ـــ إنها بريئة يا ماريانا ، سيئة الحظ ، وقد لجأت إليك فى محنتها .

ـــ أصبحت أتشاءم منها .

فرقع طلبة بأصابعه كأنما قد تلقى فكرة جديدة سعيدة وقال :

ـــ ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة ؟

فقلت بدهشة :

ـــ ماذا يمنعنا !.. يا له من قول مضحك .

تجاهلنى .. وقال لماريانا :

ـــ استعدى يا عزيزتى .. سنسهر معا كما اتفقنا !

تشكت المرأة قائلة :

ـــ أعصابى .. أعصابى يا مسيو طلبة .

ـــ لذلك أدعوك للسهر .

تغير الجو . بالقياس إليهما على الأقل . وراحا يناقشان الاقتراح بجدية . وجاء آنذاك حسنى علام من الخارج فأعلن على عزمه على الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد . وقصت عليه المدام قصة منصور باهى الغريبة فتلقاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتا ، ثم هز كتفيه العريضين كأنما ينفضهما عنه ، وراح يعد حقيبته ، ثم ودعنا وانصرف .

وتمتمت عقب انصرافه بحزن :

ـــ عدنا وحدنا كما كنا ..

فقال طلبة بمرح :

ـــ لنحمد الله على ذلك ..

انبعثت فيهما روح نشاط دفاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق والكآبة . ازينت ماريانا كالأيام الخالية .

ارتدت فستان سهرة كحلى اللون فأضفى على بياض بشرتها نصاعة وبهاء ، ومعطفا أسود ذا طوق من الفرو الأصيل . وانتعلت حذاء مذهبا . وتحلت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ . ارتدت غانية جذابة نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق . ترامقنا هنيهة وهى واقفة وسط المدخل وقفة استعراضية . ثم ضحكت بفرح بنت مراهقة ومضت هى تقول لطلبة :

ـــ سأنتظرك عند الحلاق .

* * *

وجدت نفسى وحيدا ، لا أنيس لى إلا عواء ريح عاتية . ناديت زهرة . ثلاث مرات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان . وقفت تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتى خيل إلى أنها ضؤلت واحدودبت .

أشرت إلى الكنبة فدلفت إليها فى صمت ثم استقرت تحت تمثال العذراء . شبكت ذراعيها على صدرها ورنت إلى الأرض . عصر قلبى عطف وحنان حتى امتلأت قنوات عينى بدمع غدة مضمحلة لم يعد من الميسور لها أن تروح عن صاحبها بالبكاء . قلت :

ــ لماذا تبقين وحدك كأنك بلا صديق ؟، أصغى إلى ، أنا رجل عجوز جدا بل عجوز كما ترين ، وقد تعثر تيار حياتى ثلاث مرات أو أربع ، تمنيت عند كل مرة أن أقتل نفسى ، وكنت أهتف من قلب مكلوم « لقد انتهى كل شىء » ، وها أنت ترينني على رأس عمر مديد لا يظفر به إلا الأقلون ، ولم يبق من عثرات اليأس إلا ذكريات غامضة بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنما كانت من تجارب شخص آخر !

استقبلت كلماتى بلا حماس وبلا فتور . قلت :

ــ لنترك أحزاننا لزمن يبرى الحديد ويفتت الحجر ، ولكن عليك أن تفكرى فى مستقبلك ، الحق يا زهرة أن المرأة لم تعد تريدك ..

فبادرتنى بشدة :

ــ لا يهمنى ذلك ..

ــ ماذا أعددت للمستقبل ؟

قالت وهى ترنو إلى الأرض : كالماضى تماما حتى أحقق ما أريد !

قالت وهى ترنو إلى الأرض ما تزال :

ــ كالماضى تماما حتى أحقق ما أريد ..

تنسمت فى قولها عزيمة ردت إلى الروح فقلت :

ــ حسن أن تواصلى تعليمك وأن تتدربى على مهنة ، ولكن كيف توفرين لنفسك الأمن والرزق ؟

قالت بثقة وتحد :

ــ فى كل خطوة أجد من يعرض على عملا ..

قلت برقة أستعين بها على إقناعها :

ــ والقرية .. ألا تفكرين فى العودة إليها ؟

ــ كلا .. إنهم يسيئون بى الظن .

فقلت فيما يشبه التوسل :

ــ ومحمود أبو العباس ؟.. له عيوبه بلا شك ولكنك قوية وستستطيعين أن تقوميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير .

ــ ليس دونهم سوء ظن بى ..

تنهدت فى تسليم أسيف وقلت :

ــ أود أن أطمئن عليك يا زهرة ، إنى أحبك . هو حب متبادل فيما أعتقد . وباسمه سأرجوك أن تقصدينى عند الشدة ..

رمقتنى بامتنان وحب فقلت :

ــ مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغير مرارتها من طبيعة الأشياء ، ستظل غايتك المنشودة هى العثور على ابن الحلال !

أحنت رأسها وهى تتنهد ..

ــ وستجدين حتما ابن الحلال الجدير بك .. إنه موجود الآن فى مكان ما ولعله يتحين اللحظة المناسبة !

غمغمت بكلام لم أتبينه ولكن حدثنى قلبى بأنه كلام طيب ، فقلت :

ــ ما تزال الدنيا بخير ، وستكون كذلك إلى الأبد !

لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة . وبعد وقت غير قصير استأذنت فى الانصراف ثم ذهبت إلى حجرتها .

مكثت وحدى طويلا حتى استيقظت ــ تسلل النوم إلىّ وأنا لا أدرى ــ على صوت الباب وهو يفتح .

دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنيان ، وصاح بى الرجل :

ــ ماذا أبقاك هنا أيها العجوز ؟

تثاءبت فى ذهول وأنا أتساءل :

ــ كم الساعة ؟

فأجابت ماريانا بلسان مخمور :

ــ مضت ساعتان من العام الجديد .

وإذا بالرجل يشدها إلى حجرته وهو يقبلها فتطاوعه بعد تمنع لا خطورة له ، ثم أغلق الباب وراءهما . جعلت أنظر إلى الباب المغلق وكأننى فى حلم !

* * *

جمعتنا مائدة الإفطار صباحا وكنا وحدنا . لم تظهر ماريانا على حين ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة .

نظرت إليه فوجدته مريضا أو كالمريض . قلت له مداعبا :

— صباحية مباركة !

تجاهلنى مليا ، ثم تمتم :

— يا لك من نحس !

رفعت إليه عينى مستطلعا فضحك رغما منه وقال :

— كان فشلا مزريا ومضحكا معا .

تساءلت متغابيا :

— عم تتحدث ؟

— إنك تعرف تماما عما أتحدث يا ثعلب !

— ماريانا ؟.

غلبة الضحك مرة أخرى ثم قال :

— حاولنا المستحيل ، فعلنا كل ما يمكن تخيله ، ولكن بلا فائدة ، ولما تجردت من ملابسها تبدت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسى يا للتعاسة !

— لقد جننت !

— وإذا بآلام الكلى تنتابها !، تصور ، وبكت ، واتهمتنى بأننى أمثل بها !

* * *

تبعنى إلى حجرتى بعد الإفطار . جلس على كرسى أمامى مباشرة وهو يقول :

— يخيل إلى أننى سأسافر إلى الكويت قريبا ، أفتانى المرحوم بذلك .

— المرحوم ؟

— سرحان البحيرى .

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقل :

— أراد أن يقنعنى بالثورة بمنطق غريب .

نظرت إليه متسائلا فقال :

— أكد لى أنه لا بديل للثورة إلا واحد من اثنين .. الشيوعيين أو الإخوان !. فظن أنه دفعنى إلى ركن مسدود ..

فقلت بإيمان :

— ولكن ذلك هو الحق !

ضحك ساخرا ثم قال :

— بل يوجد بديل ثالث !

— ما هو ؟

— أمريكا !

هتفت بغيظ :

— أمريكا تحكمنا ؟

فقال بهدوء حالم :

— عن طريق يمينيين معقولين ، لم لا ؟

ضقت بأحلامه فقلت :

ــ اذهب إلى الكويت قبل أن تجن !

* * *

ها هى الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنها تترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهى بالقتل ولكنه لم يقنع أحدا بالباعث عليه. قال إنه قتل سرحان البحيرى لأنه ــ فى نظره ــ يستحق القتل. ولماذا يستحق سرحان البحيرى القتل؟. لصفات وتصرفات هى مرذولة فى ذاتها ولكنها ليست بقاصرة عليه، فلم اختاره بالذات؟. بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هكذا أجاب. منذا الذى يقتنع بذلك الكلام؟. أيكون الفتى مجنونا؟! هل يدعى الجنون؟.

وإذا بتقرير الطبيب الشرعى يؤكد أن الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة ، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل ، وبذلك رجح أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل ..

وأخيرا اكتشفت العلاقة بين القتيل وبين جريمة تهريب الغزل وبذلك توكد الانتحار .

وتساءلنا عن العقوبة التى يستحقها منصور باهى. أجل .. ستكون حتما عقوبة طفيفة ، وسوف يستأنف حياته ولكن بأى قلب وبأى عقل ؟. وقد قلت بحزن :

ــ إنه فتى رائع ولكنه يعانى داء خفيفا ، عليه أن يبرأ منه .

* * *

ها هى زهرة كما رأيتها أول مرة لولا مسحة من الحزن . أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر مما أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعا . تناولت الفنجال من يدها وأنا أدارى انقباضى بابتسامة .

قالت بصوت طبيعى :

ــ سأذهب صباح الغد ..

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولكنها أصرت عليه بعناد . ومن الناحية الأخرى صارحتنى زهرة بأنها لن تقبل البقاء حتى لو عدلت المدام عن رأيها .

وعادت تقول بثقة :

ــ سأكون أحسن مما كنت هنا .

فقلت بحرارة :

ــ حمدا لله .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حنون وهى تقول .

ــ ولن أنساك ما حييت أبدا ..

أشرت إليها أن تقرب وجهها منى ، ثم قبلت خديها بامتنان وأنا أقول :

ــ أشكرك يا زهرة ..

ثم همست فى أذنها :

ــ ثقى من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتى لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت أتلو : ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

« تمت »

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثالثة عشرة	١٩٨٧
خان الخليلى	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثالثة عشرة	١٩٨٧
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الخامسة عشرة	١٩٨٧
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثالثة عشرة	١٩٨٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الرابعه عشرة	١٩٨٧
السكرية	رواية	١٩٥٧	الثالثة عشرة	١٩٨٧
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	التاسعة	١٩٨٥
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	السادسة	١٩٨٧
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السابعة	١٩٨٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخـــر طبعـة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		
تحت الطبع				
قشتمر	رواية			
الفجر الكاذب	مجموعة			